الفصل الثانى عشر

الجغرافيون والمؤرخون فى القرن الخامس

الجغرافيا[1]

إن كلمة « الجغرافيون » ، التى وردت فى العنوان ، قد تكون ، على صحتها ، مضللة إلى حد ما . ولذا فإنها تحتاج إلى مزيد بيان .

سنقصر بحثنا على أربعة رجال[2] ، هم قادة الحملات البحرية . ولم يكن هؤلاء الرجال ، جغرافيين بالمعنى الدقيق ، بل كانوا مكتشفين ومغامرين . وكانت الدوافع التى ساقتهم إلى هذه الحملات ، سياسية واقتصادية . والذى يعنينا من الأمر ، هو ما أدت إليه من زيادة معلوماتنا الخاصة عن سطح الأرض . وقد تكون هذه الحملات حقيقية . إلا أننا لا نستطيع أن نقطع فى الأمر بيقين .

وقد أقلع اثنان منهم ، وهما سكيلاكس وستسبس Scylax and Sataspes ، تحت إشراف الفرس . أما الآخران ، وهما هنون وهملكون (Hamon and Hinilcon) ، فقد كانا من القرطاجيين ، الذين كانوا فى الواقع إن لم يكونوا قانونا ، حلفاء للفرس ضد اليونانيين ، إذ كانت هنالك عداوة مستحكمة ، فى عرض البحر المتوسط وطوله ، بين المستعمرات اليونانية ، من ناحية ، والمستعمرات الفينيقية والقرطاجنية من ناحية أخرى . وهذه الاكتشافات ، التى ستتحدث عنها فيما يلى ، تمثل الجانب العلمى ، فى القرن الخامس ، من ذلك الصراع المتصل بين الشرق والغرب .

سكيلاكس الكاريندى

قال هيرودوت : « اكتشف دارا معظم آسيا . وهنالك حيث نهر " الهندوس " ، توجد أعداد كبيرة من التماسيح ، لا يفوقه فيها سوى

نهر واحد فى العالم . وعندما أراد دارا أن يكتشف مصبه فى البحر ، أرسل بعض السفن بقيادة سكيلاكس ، الذى ينتمى إلى بلدة كاريندة ، ومعه بعض الرجال الذين وكل أمرهم إليه . وهؤلاء أقلعوا من مدينة كاسپاتيروس، فى إقليم پاكتيك ، وساروا مع النهر فى اتجاه الشرق ، وعند الغروب وصلوا إلى البحر ، واتخذوا سبيلهم فيه نحو الغرب ، حتى بلغوا ، فى الشهر الثالث عشر ، المكان الذى أرسل منه ملك مصر ، الفينيقيين — الذين ذكروا آنفاً — ليبحروا حول ليبيا . وبعد هذه الرحلة البحرية ، أخضع دارا الهنود ، وأطلق يده فى هذا البحر . وهكذا عرف أن آسيا ، باستثناء الأجزاء التى تواجه الشمس ، كانت تشبه ليبيا »[٣] .

ومن هنا نعلم أن سكيلاكس هذا ، كان من أبناء كاريندة[٤] ، وأنه ظهر فى زمن دارا الأول (ملك الفرس من سنة ٥٢١ — ٤٨٥ ق.م) . ولعل المرء يتوق إلى معرفة الطريقة التى تمكن بها هذا الشخص ، من بلوغ أفغانستان (على بعدها الشاسع) ؛ ولكن الأمر لم يكن من الاستحالة بمكان .

فلعل الوالى الفارسى ، الذى كان يقيم فى إقليم الهندوس الأعلى ، رغب فى معرفة مصب النهر فى البحر ، وكيفية اتصاله بالعالم الغربى . فإذا الحظ أسعف سكيلاكس ، (فيما يختص بالرياح الموسمية)[٥] ، فالملاحة من دلتا الهندوس ، إلى رأس البحر الأحمر ، على الرغم من صعوبتها ومشقتها ، لم تكن مستعصية ، حتى على السفن الصغيرة جداً وكثيراً ما قطعتها السفن العربية[٦]. ومما أكد إمكان تحقيق رحلة سكيلاكس ، ذلك النقش الذى تركه دارا فى السويس ، وذكر فيه أنه شق قناة من النيل إلى البحر الأحمر ، وأمر السفن أن تقلع من السويس إلى فارس[٧].

إذن كانت رحلة سكيلاكس ، محتملة جداً ، والظاهر أن هنالك وصفاً كتب عنها ، وتداولته أيدى الكتاب المتأخرين ، ومنهم ، على سبيل المثال ، مؤلف كتاب (Periplus of Scylax of Caryanda) . وهذا الكتاب يتناول وصف الرحلة عبر البحر المتوسط والبحر الأسود إلخ . وفى استطاعتنا أن ندعو

المؤلف (سكيلاكس المدعى) ، لأنه من المؤكد أن الكتاب ألف فى زمن متأخر ، وقد يرجع تاريخه إلى سنة ٣٦٠ — ٣٧٠ م . ووجود مثل هذا الأثر المنحول ، يؤكد لنا وجود الأصل الذى تركه سكيلاكس ، كما يؤكد لنا رحلته عبر البحر العربى .

ونضيف إلى ذلك ، أن أى شك قد يخامر عقولنا ، فى هذا الشأن ، يجب أن يتعلق بسكيلاكس نفسه ، لا بوقوع هذه الرحلة فعلا . فنحن على يقين ، من أن نفراً كبيراً من الناس ، أبحروا من نهر الهندوس ، عبر البحر العربى ، حتى بلغوا البحر الأحمر ، وذلك قبل القرن الخامس . ويعتبر سكيلاكس أول هؤلاء الملاحين ، الذين حفظت لنا أسماؤهم .

ساتاسپيس الأخمينى

يذهب هيرودوت إلى أن ساتاسپيس كان فارسيًّا ، ينتمى إلى الأسرة المالكة ، وكانت أمه أخت دارا . وكان قد اغتصب فتاة من أسرة نبيلة ، فحكم عليه بأن يوضع على خازوق . لكن أمه تضرعت إلى الملك الجديد ، كسركسيس (ملك على الفرس ٤٨٥ — ٤٦٥ ق.م) أن يستبدل بهذا العقاب ، عقاباً آخر ، زعمت أنه أشد وطأة منه . « وهو يقضى عليه بأن يبحر حول شواطئ ليبيا ، حتى ينتهى من رحلته ويأتى إلى خليج العرب . وقد أقر كسركسيس هذا التعديل ، وأقلع ساتاسپيس إلى مصر ، حيث زوده المصريون بسفينة وبعض الملاحين . وسار حتى قطع أعمدة هرقل ، وعندما تم له ذلك ، ودار حول الرؤوس الليبية ، التى تدعى سولويس Soloeis[٨] ، انحدر نحو الجنوب . ولما كان قد قضى شهوراً عديدة ، يضرب فى عرض البحر ، وما تزال أمامه رقعة أكثر اتساعاً من التى قطعها ، عاد أدراجه إلى مصر ، وقصد كسركسيس ، وذكر له فى قصته التى رواها عن الرحلة ، أنه عندما بلغ غاية ما قطعه من هذه الرحلة ، مر على بلاد يعمرها أقزام ، وهم يرتدون ملابس حيكت من خوص النخيل . وعندما كان يلقى ، هو ورجاله ، مراسيهم ، كان هؤلاء الأقزام يفرون إلى

الجبال ، ولكنه ورجاله لم يقترفوا إساءة ما عندما نزلوا إلى البر ، ولم يسلبوا هؤلاء الناس شيئاً ، سوى ما يتبلغون به . وقد برر عدم مضيه فى رحلته ، حتى ينتهى من الدوران حول شواطئ ليبيا ، بأن السفينة تسمرت مكانها ، ولم يعد فى استطاعتها المضى قدماً . ولكن كسركسيس ، لم يصدق ما أدلى به ساتاسپيس ، ولما كان قد تخلف عن إنجاز المهمة التى طلب إليه تنفيذها ، وضعه على الخازوق ، (وعاقبه) على تلك التهمة التى رمى بها من قبل[٩] .

ورواية هيرودوت ، تشتمل على الكثير من التفاصيل المضللة . فى المقام الأول ، نعتقد أن أم ساتاسپيس كانت تعنى قطعاً الطواف حول أفريقيا بحراً . ولم تبالغ حين قالت إنه عمل من الصعوبة بمكان عظيم ، فقد كان جميع ملاحى البحر المتوسط ، يفرقون من أخطار المحيط المجهولة . ومن ناحية أخرى ، قيل إن ساتاسپيس ، استأجر سفينة مصرية ومعها ملاحوها ، ومن المحتمل أنه استأجر فى مصر سفينة فينيقية ، بملاحيها . فقد كانت هنالك علاقات تجارية بين الشعبين منذ زمن لا يعرف أوله على وجه التحديد . وكانت الزوارق الفينيقية تمخر عباب النيل فى عهد تحتمس الثالث (القرن الخامس عشر) . ومن ناحية ثالثة ، إلى أى نقطة من ساحل أفريقيا الغربى ، وصل ساتاسپيس فى رحلته تلك ؟ أضف إلى ذلك ، أنه بعد أن ترك السرلويس ، سار إلى الجنوب واستمر عدة أشهر ، حتى تسمرت سفينته وعجزت عن المضى قدماً . فهل بلغ منطقة الرياح الاستوائية الساكنة ، عند خط عرض رأس (ڤرد) ؟ أم أنه توقف بسبب الرياح التجارية ، والتيار الذى يتجه من ساحل غينيا نحو الشمال ؟

ومما يدعونا إلى الاعتقاد بأنه بلغ ساحل غينيا ، ذلك الوصف الذى أورده عن هؤلاء الأقزام الذين اتخذوا من خوص النخيل لباساً . ومهما يكن من أمر ، فلو فرضنا أنه بلغ فى رحلته هذا المدى (ولنفرض أنه خط عرض ١٠) ، فقد كان ما يزال بينه وبين الهدف المعين ، أمد بعيد جداً . والظاهر أن القدامى ، كانوا لا يستطيعون تصور مدى اتساع القارة الإفريقية[١٠] .

وحوالى مطلع القرن الخامس ، عزمت حكومة قرطاجة على اكتشاف المحيط ، أو على الأصح سواحله فقط ، ولذا قررت إرسال حملتين تقلعان من مضيق جبل طارق ، وتتجه إحداهما نحو اليسار ، والأخرى نحو اليمين . وقد أسندت قيادة الحملة الأولى إلى هنون ، كما وكل هملكون بالحملة الثانية .

هنون القرطاجى

اتخذت رحلة ساتاسپيس سبيلها حول الساحل الغربى لأفريقيا ، فى عهد كسركسيس (سنة ٤٨٦ —٤٦٥ ق.م) ، ومما هو جدير بالذكر ، أن رحلة مشابهة حدثت فى ذلك الوقت أيضاً — أو قبله بقليل — ، وقد كانت تحت إشراف القرطاجيين[١١] .

غادر الحاكم (سوفيت)[١٢] هنون قرطاجة ، على رأس أسطول عدد قطعه ستون سفينة ، من ذوات الخمسين مجدافاً ، وكانت تقل ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء[١٣] . ويتضح من ذلك ، أن غاية القرطاجيين لم تكن الاستكشاف فحسب ، بل الاستعمار أيضاً . ولعلهم أرادوا من ذلك ، أن ينهجوا نهجهم القديم فى إنشاء سلسلة من المحطات التجارية ، على الموانئ الملائمة ، لكى توفر لهم حاجاتهم التجارية ، وتؤمن سيادتهم[١٤] . وعندما عاد هنون إلى قرطاجة ، كتب تقريراً عن رحلته ، باللغة القرطاجية ، وقد نقش هذا التقرير على نصب أقيم فى معبد ملقارت ووصلت إلينا صورة منه ، كتبت باللغة اليونانية ، تحت اسم رحلة هنون Periplus of Hannon .

وأول مكان ذى أهمية ، ألقوا فيه مراسيهم ، كان جزيرة كرن Cerne التى كانت تبعد عن المضيق قدر بعد قرطاجة عنه . وهذا ما يساعدنا على تقدير مكانها اليوم ، وهى جزيرة هرن ، التى تقع عند مصب نهر الذهب .

وبعد أن أرسوا قاعدة فى كرن ، انطلقوا منها فى اتجاهين : أحدهما نهر السنغال ، والثانى رأس ڤرد (دكار) ، فنهر الجامبيا ، وخليج بساجوس ، فمضيق شربرو (فى سيراليون عند خط عرض ٣٠ : ٧ ش) . وأنا أذكر هنا

الأسماء الحديثة ، لا تلك الأسماء التى وردت فى النص المشار إليه ، إذ أن تحقيق كل اسم منها ، يتطلب بحثاً خاصًّا . ونحن لا نعنى هنا بالتفاصيل الطبوجرافية . وأهم ما فى الأمر ، أن هنون سار على محاذاة شاطئ أفريقيا الغربى ، لمسافة تقرب من ٢٦٠٠ ميل ، حتى بلغ رأس بلمباس ، حيث ينحرف الشاطئ نحو الشرق . ولكن هل بلغ هنون ، فى مسيره نحو الجنوب ، أكثر مما بلغ ساتاسپيس؟ ربما تم له ذلك، لكن الأمر ليس ذا بال . وقد نعزو إلى هذين الملاحين ، أو إلى أحدهما على الأقل ، فضل استكشاف الساحل الشمالى الغربى من أفريقيا . ولكى نقدر النتائج التى حققاها حق قدرها ، يحسبنا أن نذكر أن التوغل جنوباً فى اكتشاف الساحل الأفريقى ، لم يتم إلا بعد انقضاء ما يقرب من ألفى سنة . وقد تحقق ذلك على أيدى الملاحين البرتغاليين ، حوالى منتصف القرن الخامس عشر .

ولكن ما الذى يحملنا على تصديق تقرير هنون ؟ الذى يدعونا إلى ذلك هو أنه يحتوى على حقائق تتفق مع المشاهدات الحديثة، وعلى هذا لا يمكن أن تكون من نسج الخيال . ومن الحق أنه ليس هنالك تحديد دقيق للمواضع والأنهار ، ولكن هذه التحديدات تشكل وحدة متماسكة ، مما يدعونا إلى أن نثق بدقتها . والمعلومات الخاصة بالأجناس البشرية ، ليست فى مجموعها أقل إقناعاً . وهى تشير إلى حرق العليق ، وإلى أناس كثاث الشعر ، يدعون فى النص اليونانى بالغوريلا (أقزام أو عبيد أو قردة) . وقد قبضوا على ثلاث إناث ، وسلخوا جلودهن .

وكان هذا التقرير شديد الإيجاز ، وقد أخطأ الكتاب المتأخرون فى فهمه ، ومنهم بلينى ، (النصف الأول من القرن الثانى) الذى ذكر أن هنون قطع جميع الطريق إلى الجزيرة العربية ، وقد لاقى هذا الخطأ قبولا ، حتى عند بعض بعيدى النظر ، أمثال هنرى الملاح ورتشارد هلكويت[١٥].

هملكون القرطاجى

عرفنا هملكون ، من إشارة عابرة وردت فى كتاب بلينى (النصف الثانى من القرن الأول)[١٦] ، الذى يذكره جنباً إلى جنب مع هنون ، ومن قصيدة لاتينية ، للشاعر أفينوس (النصف الثانى من القرن الرابع) ، وهى منقولة عن القصيدة اليونانية ، التى نظمها « ديونيسيوس بيريجيتس » (النصف الثانى من القرن الأول) ، وبلينى وديونيسيوس ، يعودان بنا إلى القرن الأول ، مما يترك خلخلة واضحة فى التواتر . ومع هذا ، ليس هنالك ما يدعونا إلى الشك فى حقيقة رحلة هملكون .

ومن المصادر الرئيسية ، لأفينوس وديونيسيوس ، ذلك التقرير الذى كتبه قبطان مسيلى كان قد زار طرطسوس[١٧] ، حوالى نهاية القرن السادس ، وكان على علم بالساحل الإسبانى . وقد تمت رحلة هملكون ، بعد خراب طرطسوس مباشرة ، أى حوالى بداية القرن الخامس .

وكان قد أرسل لاستكشاف الساحل الغربى لأوربا . ووصل إلى مجموعة من الجزر تدعى جزر الأويستريميدس وبلغ رأساً يدعى بهذا الاسم أيضاً . وهو شبه الجزيرة الأرموريكية (بريتانى) ، وبعض الجزر التابعة لها . وقد أشار إلى نشاط سكان الجزر وذكائهم ، وإلى أنهم ملاحون مهرة ، على الرغم من أنه ليس لديهم سفن خشبية (كالفينيقيين) ، بل عندهم قوارب تصنع من الجلد المخيط . (Coracles) وهم يبحرون إلى جزر هيبرنيا والبيون (إيرلندة وإنجلترة) . وقد كان الملاحون الفينيقيون يبحرون إلى هذه الجزر للتجارة (تجارة القصدير)[١٨] ومن الجائز أن هملكون ، فى طريقه إلى بريتانى أو عقب ذلك أو فى طريقه للعودة ، قذف به إلى منطقة من المحيط ، حيث الرياح ساكنة ، « وحيث ترتفع الحشائش البحرية ، فى الدوامات المائية ، بحيث تعوق سير السفينة ، كما يعوقها دغل ملتف »[١٩] .

وقد قدر بعض المؤرخين ، أنه يشير بذلك إلى بحر السرجاسو ، وهو عبارة

عن منطقة متسعة من الماء الساكن ، نسبيًّا ، تقع فى المحيط الأطلسى ، وفيها تتجمع الحشائش ، كما تتجمع فى الأنهار ، تحت ظروف مشابهة . وليس من اليسير قبول هذا التفسير ، لأن بحر السرجاسو ، يبعد عن أوربا كثيراً[٢٠] . وربما كان الملاحون الفينيقيون قد بلغوا الجزر السعيدة[٢١]، إلاّ أنه من العسير أن نصدق أنهم وصلوا ، إلى الأزور ثم إلى السرجاسو[٢٢].

وإجمالا نقول : إن أوصاف هذه الرحلات البحرية الأربع ، عبر البحر العربى ، أو على محاذاة شاطئ أوربا من ناحية الأطلسى ، أو شاطئ شمالى أفريقيا ، تثير عنايتنا ، أكثر مما تثير دهشتنا . وأعمال كهذه ، كما وصفت سابقاً ، أكبر خطراً من تأملات اليونانيين فى اللانهاية ، أو فى اللامنطقية الحسابية ، وقد كان ما حققه اليونانيون فى حقل الرياضيات مدهشاً حقًّا . وقد تفوقوا فى ذلك ، لا على معاصريهم فحسب ، بل على الكثير من معاصرينا أيضاً . ولكننا ، من ناحية أخرى ، نقدر أن الملاحين القدامى ، وبوجه خاص الفينيقيين وخلفاءهم القرطاجيين ، اضطلعوا بأعمال من الممكن أن تقرن إلى ما ذكرنا ، أو بأعمال تحتاج إلى مزيد من الجرأة ، وذلك ليس فى القرن الخامس فحسب ، بل قبله بكثير .

وعند التأمل فى إبحارهم حول شواطئ مراكش ، وبنائهم المحطات التجارية فى السولويس ، وفى مواضع أخرى ، نرى أن ذلك يحتاج إلى الجرأة أكثر مما يحتاج إلى العلم . وقد كان فن الملاحة عند القرطاجيين ، كافياً لتحقيق مثل هذه الأغراض ، بل إنه كان يكفى أيضاً لنقلهم ، خطوة تلو الأخرى . إلى مدى أبعد على الشاطئ الإفريقى ، فى اتجاه الجنوب ، ومكنهم من التمهيد لتلك الأعمال التى حققها البرتغاليون فى القرن الخامس عشر . وقد توقفت حركات الاستعمار القرطاجى ، نتيجة لذلك الصراع الذى احتدم بين قرطاجة وروما ، وكان بالنسبة إليهم معركة حياة أو موت ، وقد شل حركة الأسطول القرطاجى فى البحر المتوسط أو قريباً منه ، إلى أن انتهى بفناء قرطاجة سنة ١٤٦ ق م .

ولابد لنا أن نلاحظ أخيراً ، أن الذى يدعو إلى الدهشة فى تلك التقارير

الأربعة ، ليس ما تصفه من أعمال ، بل هو مجرد وصولها إلينا . ولا مناص لنا من أن نفترض أنه قد جرت فى الأزمنة القديمة ، محاولات من هذا القبيل ، أو من نوع يفوقه ، ولكن أخبارها لم تصلنا ، لأن هؤلاء المغامرين قضوا نحبهم ، فلم يؤوبوا ، أو لأنهم كانوا ينفرون من الدعاية ، أو لأنهم لم يكونوا على حظ من البيان ييسر لهم رواية رحلتهم . ونفسية الملاحين ، والمغامرين ، تختلف كثيراً عن نفسية الكتاب . والحقيقة أن أكثرهم كانوا يجهلون الكتابة جهلا مطبقاً ، أو يعجزون عن تدبيج وصف واضح . وعلينا أن نعتبر سكيلاكس ، وساتاسپيس ، وهنون ، وهملكون ، قلة تمثل كثرة ، أو نماذج باقية من الملاحة فى العصر القديم[٢٣].

وقد انحدر إلينا اثنان من هذه التقارير . والفضل فى ذلك يعزى إلى هيرودوت ، ومصنفه يحوى الكثير من الحقائق التى تمتاز بأهميتها الجغرافية . وسنتناولها بالدرس فى حديثنا القريب عنه .

وأهم حادث جغرافى ، فى هذا القرن ، وقع فى نهايته (سنة ٤٠١ ق.م) عندما قاد كسينوفان ، عشرة آلاف من جنود اليونان المرتزقة ، الذين تشتتوا فى أعالى دجلة ، عبر جبال أرمينيا وقبادوسيا إلى طرابيزون (Trapezus) ، على البحر الأسود[٢٤]، وهذا التقهقر الذى وصفه كسينوفان أبلغ وصف ، يعد من أخطر الأعمال التى وعتها ذاكرة الجنس البشرى ، من هذا القبيل .

و « صعود » كسينوفان Anabasis ، الذى كتب حوالى ٣٧٩ — ٣٧١ق.م. يعتبر من روائع الأدب التاريخى الجغرافى ، وهو أول وصف مسهب لمنطقة شاسعة ، وللسكان الذين يعمرونها ، على الرغم من أن الغاية منه ، لم تكن فى أصلها جغرافية ، وهو ، فضلا عن أنه من أحسن الكتب فى موضوعه ، يعتبر الأثر الأول فى هذا الباب[٢٥].

المؤرخون : هيرودوت ، ثوكسيديديس ، كتسياس

شهد النصف الثانى من هذا القرن ، مولد علم التدوين التاريخى ؛ أى نشوء

فرع جديد من فروع العلم ، يعنى بوصف تجارب الإنسان وصفاً دقيقاً . ويرى البعض أن تدوين التاريخ ، لا يصح أن يدعى علماً ، لأن المعلومات التاريخية ، تحتمل الكثير من الشك ، فوق أنها مضللة . وهكذا وجهوا إلىّ اللوم ، لأننى أفردت له جزءاً كبيراً فى مقدمتى Introduction . وأظن أن اعتراضاتهم لا تقوم على أساس ، لأن الجهود العلمية تتميز باتجاهها إلى البحث عن الحقيقة ، بالقدر الموجود منها ، وإلى التقرب من دائرتها ، بالقدر الذى تسمح به الظروف . وهذا التقرب الذى يمكن التوصل إليه ، أو الذى يتوصل إليه فعلا ، يختلف باختلاف الموضوعات العلمية ،والصفة العلمية التى تكتسبها جهودنا ، تعتمد على الغاية التى نسعى إليها ، وعلى نوع الأساليب التى نتبعها ، أكثر مما تعتمد على درجة تقربنا من الحقيقة ، فى النتائج التى نهتدى إليها . ولا ننكر أن الحقائق التاريخية لا يمكن أن تكون قاطعة ، ومع ذلك كانت فى القرن الخامس أقل غموضاً وتضليلا من معظم الحقائق الطبيعية .

هيرودوت الهاليكارناسى

ولد هيرودوت — ابن ليكسيس ودريو — فى هاليكارناسوس إحدى مدن كاريا ، حول سنة ٤٨٤ ق.م[٢٦]. وقد كانت كاريا (التى تقع فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى) ، إحدى مستعمرات الدوريين ، ولكنها كانت أكثر تأثراً بالثقافة التى ازدهرت فى المدن الأيونية المجاورة . وفى القرن الخامس ، كان سكان كاريا الذين يتكلمون اليونانية ، ينطقون باللهجة الأيونية . وفى طفولة هيرودوت ، كانت كاريا إقطاعية للإمبراطورية الفارسية . وقد اضطر هيرودوت ، وهو ما يزال حدثاً ، إلى مغادرة وطنه ، بسبب الاضطرابات السياسية . وقضى فترة من الزمن فى ساموس ، ثم أمعن فى الترحال . وزار أثينا ، حيث تعرف إلى بركليس وسوفوكليس ، وقضى باقى حياته فى توری (أسست سنة ٤٤٣) ، حيث توفى فى بداية الحرب البيلوپونيزية (٤٣١ — ٤٠٤) ، أى حول سنة ٤٢٦ ق.م. وقد كان يدعى فى الزمن القديم (حتى القرن الثالث

من هذا العصر) ، بهيرودوت التورى .

وقد قام برحلات واسعة ، فزار مصر ، وأبحر فى النيل حتى بلغ أسوان والإلفنتين[٢٧] ولعله ذهب إلى برقة أيضاً . ومرّ بغزة وصور ، وأبحر فى الفرات حتى بلغ بابل . وتعرف إلى المنطقة الشمالية من بحر إيجه ، حتى مدينة طاسوس . وأهم ما فى رحلته ، أنه زار سكيتيا ، التى تقع على شمالى البحر الأسود ، ولابد من أن يكون قد قضى بعض الوقت فى أولبيا ، قرب مصب الهيبانس (Bug) وفى مكان يبعد عن المصب قليلا ، فى مجرى النهر .

وكثير من الحقائق التى ذكرها ، استمدها من مشاهداته الخاصة ، والبقية الباقية ، حصل عليها عن طريق الرواية . ولابد أنه التقى فى بعض المواضع ، كأثينا ودلفى ، بأناس أتوا من جميع أجزاء العالم اليونانى .

وقد أطلق عليه شيشرون لقب « أبو التاريخ »[٢٨] . وعلق به هذا اللقب المشرف منذ ذلك الحين ، وهو فى الحقيقة أهل له . وإذا صرفنا النظر عن المؤرخين العبرانيين ، كمؤلف كتب صموئيل (فى القرن السابع قبل الميلاد) ، فلابد لنا من أن نذكر أنه كان فى بلاد اليونان عدد من مدونى الحوليات التاريخية . وقد سبق أن تحدثنا عن أحد الرعايا الفرس ، واسمه هيكاتيوس ، الذى ينتمى إلى ميليتوس ، وأباح هيرودوت لنفسه أن يتناوله بالتجريح ، حين كان يرجع إليه . كما أنه كان هنالك غيره من مدونى الحوليات . ولكن هيرودوت كان أول من وضع كتاباً محكم الأسلوب ، سهل القراءة . والحقيقة أنه ألف أول قطعة رائعة فى النثر اليونانى (شكل ٦٧)[٢٩].

* * *

ولنبحث الآن ، فى هذا الأثر العظيم .

إنه وصف لبلاد اليونان ومصر وآسيا الصغرى ، فى ماضيها وحاضرها . والغاية التى رمى إليها ، هى وصف ذلك الصراع العظيم الذى احتدم بين آسيا واليونان ، منذ زمن كروسوس (ملك ليديا من سنة ٥٦٠ — ٥٤٦ ق.م) ، حتى زمن كسركسيس ونهاية الحروب الفارسية ، أو بعبارة أدق ، حتى

ΤΕΛΟΣ ΤΩΝ ΙΣΤΟΡΙΩΝ ΗΡΟΔΟΤΟΥ.

ΑΑ. ΒΒ. ΓΓ. ΔΔ. ΕΕ. ΖΖ. ΗΗ. ΘΘ. ΙΙ. ΚΚ. ΛΛ. ΜΜ. ΝΝ. ΞΞ. ΟΟ. ΠΠ. ΡΡ. ΣΣ.

AA. BB. CC. DD. EE. FF. GG. HH. II. KK. LL. MM. NN. OO. PP. QQ. RR. SS.

Sunt Quaterniones omnes, praeter ultimum duernionem.

Venetiis in domo Aldi mense Septembri. M.DII. et cum privilegio.

« توضيح الشكل ٦٧ »

تاريخ هيرودوت ، الطبعة الأصلية (من القطع المزدوج — البندقية — الدومانوزيو ، سبتمبر ١٥٠٢) وهذه الصفحة تشتمل على النهاية وفهرس المواد . وهي تدل على أن الكتاب مؤلف من ١٧ ملزمة كاملة ، رمز إليها ب : ا ا ، ب ب ، . ر ر . ومن ملزمة نصفية واحدة ، رمز إليها ب س س . والمجموع هو (١٦ × ١٧) + (٨ × ١) = ٢٨٠ صفحة ، بما فيها صفحة العنوان والصفحة الأخيرة التي تحتوي اسم صاحب المطبعة وختمه والصفحة المصورة هي الصفحة التي تسبق الأخيرة من الكتاب . (عن نسخة في مكتبة كلية هارفارد) .

الاستيلاء على سستوس (٤٧٩–٤٧٨)[٣٠] . وقد قسم هذا المصنف إلى تسعة كتب ، عنون كل منها باسم إحدى إلهات الشعر[٣١] . ووضع هذا التقسيم ، نحاة الإسكندرية ، وكان معروفاً على عهد لوسيانوس (١٢٠ – ٢٠٠) . ولكن هيرودوت عندما يشير إلى مصنفه هذا ، لا يذكر أى كتاب ، بل يدعوه بالتاريخ . (Logos)[٣٢]

ويظهر لنا غرضه بوضوح ، فيما قاله فى الفقرة الأولى منه :

« الذى تعلمه هيرودوت الهاليكارناسى عن طريق البحث ، تجده هنا ماثلا بين يديك ، وذلك حتى لا تنطمس ذكرى الماضى فى أذهان الرجال على مر الأيام . وحتى لا تفتقر تلك الأعمال العظيمة الرائعة التى اضطلع بها اليونانيون والأجانب – وخاصة أسباب نشوب الحرب بينهم – إلى من يظهرها للملأ » .

وهذه الفذلكة البسيطة ، لها تأثيرها ودلالتها فى آن واحد . فقد كانت غايته أن يسجل للأجيال التالية تلك الأعمال العظيمة ، التى قام بها اليونانيون والبرابرة[٣٣] (الأجانب) أيضاً .

وهذا أمر يستدعى الانتباه ، لأن بعض هؤلاء الأجانب ، الذين يشير إليهم ، كانوا إلى مدة قريبة ، أعداء لليونانيين ، فى حرب ضروس ، أوشكت على نهايتها فى ذلك الوقت ، الذى كان فيه هيرودوت عاكفاً على كتابة تاريخه . فما الذى حدث له ؟ هل كان يفتقر إلى الشعور الوطنى ؟ لقد كان رجلا متمدناً ، حاول أن يفهم بأمانة ولطف ، أنباء الأمم الأخرى . ويجب أن نضيف إلى ذلك ، أن تلك النظرة العالمية ، كانت أكثر ملاءمة له ، منها لرجل ينتمى إلى طيبة أو أثينا . لأنه كان ينتسب إلى كاريا ، التى مصرها الدوريون ، ولكنها كانت خاضعة لمؤثرات أيونية وفارسية ، وهكذا كانت شبه شرقية[٣٤]. ولم تكن الأسرة الحاكمة فيها هلينية ، فالملكة أرتميزيا الأولى ، التى يتحدث عنها هيرودوت حديثاً وديّاً[٣٥] ، كانت من أتباع كسركسيس . وقد رافقته فى حملته بخمس سفن ، كانت من أحسن سفن أسطوله ، ولم يتفوق

عليها إلا تلك السفن التى أتت من صيدا .

وقد كتب بلوتارك (النصف الثانى من القرن الأول) ، كتاباً دعاه (De malignitate Herodotis) « تحيز هيرودوت » اتهم فيه أبا التاريخ ، بأنه ميال إلى البرابرة (الأجانب) ، وهذه الصفة تقابل كلمة « العالمى » ، فى أمم الاتحاد السوفييتى اليوم . واتهمه بأنه مجحف ، وذلك لأنه لم يكن متحاملا . وهو بهذا يذكرنا ببعض المتعصبين فى أيامنا هذه ، الذين يرتابون فى كل إنسان لا يكون متبجحاً فى شعوره الوطنى مثلهم . ولنلحق هذه المعجزة أيضاً ، بسلسلة المعجزات اليونانية ؛ وهى أن أول مصنف يونانى فى التاريخ ، كتبه رجل شهد بأم عينه كثيراً من وقائع تلك الحرب الرهيبة التى دارت رحاها بين فارس واليونان ، ومع ذلك كله ، استطا أن يتحدث عنها بدماثة وإنصاف ، دون أن يطوى نفسه على ضغينة عنصرية[٣٦] . وبعد أن نوهنا بهذه الفضيلة الأساسية ، التى تكشف عنها عقل هيرودوت ، ننتقل إلى تأمل غايته ومنهجه بعناية أكبر .

وسنتحدث أولا ، حديثاً موجزاً عن مصادره . والمصدر الأول ، دون ريب ، هو تلك المعلومات التى جمعها من رحلاته فى القارات الثلاث[٣٧] . وقد كان ناقداً ممحصاً ، إلى الغاية التى يتيحها عصر كعصره . فلم نكن نتوقع منه مثلا ، أن ينكر الكهانة ، وأن يبين أن اعتقاداً كهذا لا يمكن أن يتم إلا بشروط خاصة . ولم تكن النبوءات فى نظره مقبولة ، بقيمتها الظاهرة ، فالإنسان يستطيع أن يتعرف إلى عدد منها ، وأن يختار من بينها ما شاء له الاختيار . والتكهن إذن ، كما هو الآن ، ليس إلا نوعاً من التفكير بصوت عال أو من تبادل الآراء . وكان هيرودوت فى أغلب الأحيان يعبر عن شكه ، أو يحتاط لنفسه ببعض الملاحظات كقوله : « أنا أقص القصة كما رويت لى » ، وكان فى بعض الأحيان ، يورد عدة روايات ، ويتركها للقارئ ليميز خبيثها من طيبها . وكان بارعاً فى رواية القصص ، وقد قيل إنه كان يرتزق بهذه الوسيلة ، وإن كنا لا نجد ما يثبت ذلك . ولكننا بعد ، لا نعرف المورد الذى كان يأتيه منه الرزق . ولعله كان تاجراً ، ولا شك أن التجارة كانت تلذ له ، كما كانت

تلذ لأكثر اليونانيين[٣٨]. وكتابه يزخر بالحوادث والحكايات القصيرة ، التى يمكن أن تنحى منه جانباً ، كما أنه يغص بالاستطرادات الممتعة ، التى كان يجب إيرادها ، على طريقة المحدثين البارعين . ولا يستبعد أن يكون قد قلب بعض الوثائق ، ورأى بعض النقوش ولكنه اعتمد على السماع فى المقام الأول ؛ وكان بارعاً فى المقارنة بين الشهود وتمحيص أخبارهم . وهو يتيح لنا رؤية هؤلاء الشهود ، وسماع أقوالهم بعينها ، إلا أنه بعد ذلك كله ، يدلى بخواطره وآرائه ، التى غالباً ما تكون رقيقة دمثة ، تنبع من عقل ذكى ، وتفيض من فكر صائب ، وتجعلنا أحياناً نتذكر مونتينى .

ومصنفه يعتبر ذخيرة من الأساطير والخرافات الشعبية ، اليونانية والشرقية . وهو يقارن ، فى هذا الشأن ، بكتب الرحالة العظام ، أمثال ماركوبولو (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) ، وابن بطوطة (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) . كما أن مصيره لا يختلف عن مصيرهم . فقد كانت الحكايات التى قصوها ، من الغرابة بحيث أحجم كثير من الناس عن تصديقها ، يبتسمون منهم ساخرين . ولسان حالهم يقول : «كل ذلك زور» . والقراء السذج ، يتقبلون عادة المعجزات والخرافات ، دون أن يساورهم تجاهها شىء من الشك أو الارتياب ، بينما لا يخفون شكهم فى الحكايات الحقيقية . وسنورد بعض الأمثلة فيما بعد .

وقد كان هيرودوت من أعلام النثر اليونانى المرسل . وكان أول مؤلف حمل اليونانيين على أن يعتقدوا أن النثر قد يحوى من الجمال والإثارة ما يحويه الشعر . وقد لاحظ ذلك أيضاً ، رجل آخر من هاليكارناس ، هو ديونيسيوس (النصف الثانى من القرن الأول) .

وأسلوبه بسيط كل البساطة ، لا يقوم على شىء من الصنعة ، وحكاياته ترد بطريقة مباشرة . وهو يميل إلى الاستطراد ، ويأتى به عمداً ، كما كان يفعل هوميروس . وقد تأثر به ، كما فعل كل يونانى ، إلا أنه تأثر ، فضلا عن ذلك ، بكتاب المآسى . وقد كان سمحاً مخلصاً ، معتدلا حكيماً ، وكان فى شذوذه

وسذاجته كالأطفال . وكانت التفاصيل القصصية تسّهويه ، ولذا كان يمعن فيها فى بعض استطراداته ، وخاصة فى وصفه لجميع الأمم التى ضمها جيش كسركسيس وأسطوله . فقد كان هؤلاء الرجال ، يمتشقون أسلحة مختلفة ، ويرتدون ملابس متباينة ، كل بحسب جنسه وتقاليده . وهذا الوصف يقع فى ما لا يقل عن ثمانية وثلاثين فصلا[٣٩] ، وقد استهله بالفرس ، وانتهى به عند الملكة أرتميزيا الأولى والسفن الكارية .

وكانت فلسفته فى التاريخ ، لا تختلف عن فلسفة كبار الشعراء والكتاب المسرحيين فى عصره . والفكرة الأساسية التى تقوم عليها ، هى « تغير الحظ » . وهى واضحة فى عرض كتابه ، الذى يبتدئ ابتداء مناسباً ، بتاريخ كروسوس ، وينتهى بتاريخ كسركسيس . ونحن نشاهد فى كل لحظة ، ذلك الانتقام الإلهى الذى لا يرحم ، والذى يطهر النفوس من كبريائها وصلفها . وفكرة العناية الإلهية ، ترد عنده أيضاً[٤٠] ، كما ترد عند سوفوكليس ويوريبيديس[٤١] . وهكذا كان هيرودوت ، على الرغم من بساطته وطيبته ، جاداً كل الجد . وأود أن أكمل الصورة التى أعطيتها عنه ، بمقارنة أثارت الدهشة فى نفسى : « فقد لاقى هيرودوت نفس المصير الذى لاقاه موزار . حالت عذوبته وفكاهته وسهولته غير المتكلفة ، دون ظهور نغمة الحزن الممض والحسرة ، التى كانت تئن أحياناً بين سطور تاريخه »[٤٢] . ومقارنة كهذه ، بين شخصين يفترقان فى الزمن والمكان والأخلاق ، كما هو الشأن فى هيرودوت وموزار ، لا تخلو من المصادفة ، ولكنها على كل حال ، مرت بخاطرى ، لأننى أحبهما معاً .

إن تاريخ الشرق الأدنى معقد ، حتى نحن الذين نملك الخرائط والجداول الموضحة والقواميس التى ترشدنا فى كل خطوة نخطوها يصعب علينا ، فى بعض الأحيان ، تفسير الوقائع المعقدة ، وتفهم ما وقع من أحداث . ولهذا لا ننتظر من مؤرخ مبكر ، أن يجلو لنا أموراً معقدة كهذه ، بوضوح ودقة . وتاريخ هيرودوت ، يشتمل على ذخيرة طيبة من المعلومات المهمة ، ولكنه لم يكن ، ولا يمكن أن يكون ، مصنفاً كهذه المصنفات التى نقع عليها اليوم ،

والتى هى ثمرة قرون عديدة . والقسم الخاص بمصر ، من تاريخه ، مشوش مضطرب ، إلا أن قيمته تزداد ، عندما يتناول تاريخ الأسرة السادسة والعشرين ، (الأسرة الصائية من سنة ٦٦٣ — ٥٢٥ ق.م) التى يستهلها بسماتيك الأول (٦٦٣ — ٦٠٩ ق.م) ، وكذلك عندما يتحدث عن الغزو الفارسى ، وقد ظلت مصر ولاية فارسية ، منذ سنة ٥٢٥ ق.م ، حتى عهد الإسكندر الأكبر (٣٣٢ ق.م) . وكان من الطبيعى أن يزور هيرودوت مصر ، وقد كان بحسب مولده مواطناً فارسيًّا ، وأن تثير الأعاجيب الكثيرة فى هذه البلاد اهتمامه . وقد أعجب بتلك المعابد الضخمة التى كانت تغطيها نقوش طويلة ، لم يتمكن من قراءتها ، وكان تحت رحمة التراجمة ، الذين كانوا بدورهم لا يستطيعون قراءتها أيضاً ، إلا أنهم كانوا مع ذلك ، على استعداد لتفسير ما غمض منها . ومهما يكن من أمر ، فقد كان وصفه لمصر ، بالغ الأهمية ، لأنه الوصف الوحيد ، الذى انتقل إلينا من شاهد يونانى ، أجنبى ذكى ، كانت نفسه تنطوى على عطف عظيم .

ووصفه لبابل يستحق مثل هذا النقد . ومعرفته لتاريخ بابل القديم ، لا تختلف عن معرفة أى بابلى مثقف عاش فى ذلك الحين ، وكانت لديه معلومات ضئيلة عن تراث قومه ، إلا أنه لا يلم بتواريخ الأسر الحاكمة القديمة ، إلمامنا به نحن اليوم .

والقصة التى يرويها هيرودوت عن بسماتيك[٤٣] ، نموذج من سرعة تصديقه ، وحرصه على التمحيص فى الوقت ذاته . فقد زعم البعض أن الحضارة الفريجية[٤٤] ، أقدم عهداً من المصرية . وفى سبيل إظهار الحقيقة ، عمد بسماتيك إلى وضع بعض الأطفال ، حديثى الولادة ، فى عهدة أحد الرعاة ، وطلب إليه أن ينشئهم مع قطيعه . وقد أمر بالعناية بتغذية هؤلاء الأطفال ، كما منع الناس من التحدث إليهم . وأخيراً تلفظ أحدهم بكلمة (becos) ، (وهى تعنى «الخبز» ، فى اللغة الفريجية) ، فاستنتج بسماتيك أن الحضارة الفريجية أعرق ، وجمع هيرودوت روايات أخرى تتصل بهذه الحادثة من ممفيس وطيبة وعين شمس .

ونمى إليه عدد من القصص التى تدور حول الآلهة ، وعلق عليها بقوله[٤٥]:

« لا أريد أن أقصها ، ولن ألقى بالا إلى أسماء الآلهة ، لأننى أعتقد أن الناس فى علمهم بالآلهة سواء » .

والأساس الفلسفى والدينى الذى كان يستند إليه عقل هيرودوت ، مزيج من الأفكار الفيثاجورية والشرقية . وكان يعزو الاعتقاد فى تناسخ الأرواح[٤٦] إلى المصريين . وزاد على ذلك ، أن بعض اليونانيين ، الذين فى استطاعته أن يذكر أسماءهم ، شاركوا المصريين فى هذا الاعتقاد . وهو أمر محتمل ، ولكن الأغلب أن يكون هؤلاء اليونانيون استقصوا علمهم هذا من الهند ، لا من مصر . وخلط فى حديثه بين « ديمتريا » و « ديونيسيوس » ، حاكمى العالم السفلى ، وكذلك كان شأنه مع إيزيس وأوزيريس . إلا أن ذلك كان أمراً طبيعيًّا .

ولم تكن لديه خبرة بالرياضيات ، كما أن معلوماته الفلكية كانت هزيلة . ولاحظ معرفة المصريين الغزيرة بالتنجيم والكهانة[٤٧] ، كما أعجب بتقسيمهم للسنة : (٣٠ × ١٢) + ٥ = ٣٦٥ يوماً . ينقسم كل منها إلى ٢٤ ساعة[٤٨] . فى حين أن أحد تقسيماته الخاصة للسنة ، كان يجعلها تقع فى مايقرب من ٣٧٥ يوماً[٤٩] . وهو يصف كسوفاً وقع قبل معركة سلاميس ، مع أنه لم يقع كسوف ما فى تلك السنة (سنة ٤٨٠ ق.م)[٥٠] .

وبما أنه نهج نهجاً موسوعيًّا فى تصنيف تاريخه ، فإن الملاحظات التى يمكن أن نعلق بها على الأشياء التى ذكرها ، أو أهملها ، فيما يختص بممالك الطبيعة الثلاث[٥١] ، لا تنتهى . ولهذا يجب أن نقتصر على بعض الأمثلة .

فقد لاحظ مثلا طريقة البابليين فى تأبير أشجار النخيل ، كما لاحظ طريقتهم فى تلقيح أشجار التين . وعندما تقدم إلى وصفهما[٥٢] ، خلط بينهما . وهذا يدل على أنه سمع بهاتين الطريقتين ، أو أنه شاهدهما ، دون أن يفهمهما تمام الفهم ، ثم خانته ذاكرته[٥٣] . وكان شرح ثيوفراستوس (النصف الثانى من القرن الرابع ق.م) لهذا الموضوع ، أكثر وضوحاً . وهذه المسألة تعتبر من

أكثر المسائل إمتاعاً فى تاريخ العلوم . وقد اختلطت فيها الخرافات الشعبية بالدين ، وهى تقوم شاهداً على مرة العقل الإنسانى . ونكتفى هنا بالقول ، بأن النظرية الجنسية فى إخصاب النباتات العليا ، لم تشرح بطريقة علمية ، إلا سنة ١٦٩٤ . ولم تحز القبول عند العامة ، إلا بعد مقاومة شديدة . أما تلقيح شجرة التين ، فلم يشرح إلا بعد ذلك بزمن[٥٤].

وفى وصفه للأنهار السكيتية ، يتحدث [٥٥] عن « سمك الحفش[٥٦] العظيم الذى يخلو جسمه من السلسلة الفقرية » ، ويوجد عند مصب الهيبانس ، ويحفظ بالتمليح . ولم يذكر الكافيار الذى يستخرج منه ، مع أنه من الصعب أن نصدق أن السكيتيين ، أو سكان المستعمرات اليونانية ، لم يكتشفوا نوعاً من أنواعه .

وقد عنى هيرودوت بملاحظة النيل ، وأرض مصر ، وخرج من هذه الملاحظة بقولته المشهورة : مصر هبة النيل (doron tu potamu) . واستطاع أن يبرهن على هذا الرأى . ولم يستطع أن يعلل أسباب الفيضان السنوى تعليلا دقيقاً . ولكنه لاحظ رواسب الطمى السنوية . وشاهد الأصداف البحرية والمتحجرة على التلال . واستنتج منها ومن طبقة الأملاح التى كانت تغطى وجه الأرض ، أن هذه الأجزاء كانت فيما مضى مغمورة بماء البحر[٥٧]. وقد كانت مصر السفلى ، فى يوم من الأيام تحت الماء ، ولكن النهر أخذ يجرف معه بعض الرواسب ، هكذا نشأت الدلتا نحو البحر[٥٨] . ولاحظ تغير مواقع الماء واليابسة فى تساليا أيضاً ، وعزا نشوء مضيق تحب (شمالى تساليا) إلى إحدى الهزات الأرضية .

« ويذهب أهل تساليا إلى أن " بوسيدون " هو الذى شق هذا المضيق ، حيث يجرى نهر بينيوس . وهذا أمر معقول ، لأن الذى يعتقد أن بوسيدون يلكّ الأرض دكًّا ، وأن تلك الصدوع التى تحدثها الزلازل من صنعه لا بد أن يحكم ، لدى رؤيته ذلك المضيق ، بأنه من صنع بوسيدون ويتراءى لى أن هذه الجبال تمزقت بفعل زلزلة من الزلازل » [٥٩] .

وهذا تعليل جميل ، لأنه يكشف عن معرفة مبكرة بالجيولوجيا ، إلا أنها

مختلطة بالأساطير . وهو يعترف بأن شكل الأرض يتغير بفعل الزلازل ، وإن كان يرى أيضاً أن هذه الزلازل من صنع بوزيدون . وهذا أمر ربما تقل غرابته ، عندما يتأمل الإنسان الشذوذ الجيولوجى العجيب ، فى إقليم اليونان : الينابيع الحارة ، والمعدنية ، والشعاب الضيقة ، والأنهار الباطنية والزلازل — ولكن أكثر الناس يمرون بغرائب الطبيعة مرور الكرام ، ولا يحاولون لها تعليلا . وقد مزج هيرودوت بين التعليل العلمى ، والتعليل الميثولوجى ، وكثير من الناس فى أيامنا هذه يذهبون مذهبه ، إذ تكون تعليلاتهم العقلية ، دائماً مقيدة ومحدودة .

لم يكن هيرودوت عالماً جغرافيًّا بالمعنى الدقيق ، ولعل السبب الوحيد فى ذلك ، أن معلوماته الرياضية ، لم تكن من الغناء بحيث تيسر له تفهم الجغرافيا تفهماً صحيحاً . وكان عقله متجهاً وجهة أخرى ، ومع هذا أمعن فى تجواله فى القارات الثلاث ، ولهذا مكنته تجاربه ، بالإضافة إلى تجارب غيره ، من أن يكوّن فكرة واضحة ، إلى حدما ، عن العالم المأهول (oicumené) آنذاك ، ولم يكن راغباً فى تعميم هذه المعلومات وتسويغها للناس ، وقد لاحظ على ذلك بقوله :

« إننى أستغرق فى الضحك ، عندما أرى أن كثيراً من الناس ، رسموا خرائط عامة للأرض ، ولكن أحداً منهم ، لم يستطع حتى الآن ، أن يضع المسألة الوضع الصحيح ، لأنهم يرسمون المحيط ، وهو يجرى حول الأرض من جميع جهاتها ، تلك الأرض التى يرسمونها على هيئة دائرة ، وكأنها خططت بالفرجار . كما أنهم يرسمون آسيا مساوية فى حجمها لأوربا »(٦٠) .

وهذا الكتاب ، الذى يعتبر أول مصنف فى التاريخ ، هو أيضاً أول مصنف فى الجغرافيا البشرية . لأنه يحوى أوصافاً جغرافية للأرض المعروفة عامة ، ولأجزاء كثيرة منها . وهذه الأوصاف تعنى دائماً بالجنس البشرى ، لأن هيرودوت ، كان يعنى به عناية تفوق عنايته بالمجردات . وكان يهتم بالجغرافيا البشرية ، أكثر مما يهتم بالجغرافية الفلكية . كما كان يلتفت إلى التاريخ البشرى ، أكثر مما يلتفت إلى التاريخ الطبيعى . وبما أنه لم يكن فى حوزته

خرائط دقيقة ، فلا عجب إذا تكررت الأخطاء فى وصفه . ومما يدعو إلى الدهشة حقًّا ، أن هذه الأخطاء لم تكن ، على كثرتها ، من الخطورة بمكان . وفى كثير من الأحيان ، كان يحس بحاجته إلى المعلومات ، ولهذا كان يخشى أن يورط نفسه ، وإليك مثلا على ذلك ، قوله :

« لا أستطيع أن أتحدث بدقة ، عن المناطق التى تقع فى أقصى غربى أوربا ، فأنا لا أعتقد أن هنالك نهراً يدعوه الأجانب (إريدانوس) ، يصب فى بحر الشمال ، وهو ، كما يقال ، المصدر الذى يأتينا منه العنبر . كما أننى لا أعرف شيئاً عن جزر القصدير ، التى يجلب إلينا منها القصدير . وإن لفظ إريدانوس نفسه ، يدل على أنه ليس اسماً أجنبيًّا ، بل هو يونانى ، أبدعته مخيلة أحد الشعراء . وعلى الرغم من كل ما بذلته من مثابرة ونشاط ، لم ألق إنساناً رآه ، أو أقر بأن هنالك بحراً وراء أوربا . وكل ما نعرفه من الأمر ، أن ما نستهلكه من العنبر والقصدير ، يرد إلينا من مناطق بعيدة جدًّا »[٦١].

وقد تردّى فى أخطاء فادحة عجيبة ، عندما تحدث عن مجرى الدانوب ومجرى النيل . وعندما رأى أن الدانوب يقطع أوربا من الغرب إلى الشرق ، ظن أن النيل الأعلى يسير فى هذا الاتجاه أيضاً . وبالإضافة إلى ذلك ، خلط بينه وبين نهر النيجر . ولعلنا نغتفر له هذه الزلة ، إذا تذكرنا أن هذا الخطأ ، ظهر على صور مختلفة ، حتى أواخر القرن الثامن عشر[٦٢]. ولعل قيمة الأطالس ، وما تحتوى عليه من معلومات ، لا تظهره بجلاء فى موضع خير من هذا . ففى وقتنا الحاضر ، يستطيع أى طفل ، بنظرة واحدة يلقيها على خريطة بسيطة متقنة لأفريقيا ، أن يتتبع مجارى الأنهار العظيمة — النيل والنيجر والكنغو — من منابعها حتى تصبّ فى البحر ، كما يستطيع أن يدرك على الفور ، علاقاتها المتبادلة . فليس أمامه فى ذلك أى شك أو التباس[٦٣].

وقد كانت الإمبراطورية الفارسية تنقسم إلى عشرين مقاطعة أو ولاية . ووصف هيرودوت بتفصيل ، الطريق الملكى (السلطانى) فى فارس ، الذى يصل بين ساردیس وسوسه[٦٤]. وطوله يساوى ٤٥٠ فرسخاً ، أى ما يساوى

١٣٥٠٠ ستاديه (الفرسخ = ٣٠ ستاديه) ، أو مسيرة تسعين يوماً (بمعدل ١٥٠ ستاديه فى اليوم الواحد)[٦٥] . وكانت هنالك مراحل للراحة . والمسافة بين إفسوس وساردِيس ، تبلغ ٤٥٠ ستاديه . وهكذا تكون المسافة بين البحر الهلينى والعاصمة ، ١٤٠٤٠ ستاديه . أى مسيرة ٩٣ يوماً . ووصف هيرودوت يحتوى على أخطاء كثيرة ، ولكننا إذا قبلناه على علاته ، نستنتج من نصه وجود طريق ملكى ، يقطع الإمبراطورية ، وينقسم إلى مراحل معينة ، وأنهم أقاموا نظاماً خاصا للبريد . والحقيقة أنه لولا قيام مثل هذه الخدمة ، التى كانت مقصورة على الأغراض الرسمية ، بالإضافة إلى أعمال التجسس ، لما أمكن وجود حكومة فى هذه الإمبراطورية الشاسعة الأطراف . والطريق التى وصفها هيرودوت ، كانت أكثر طولا وأشد تعرجاً مما كان يمكن أن تكون عليه ، ومرد ذلك إلى اتباعها لبعض الطرق القديمة (الحيثية)[٦٦] .

وقد اعتمد هيرودت فى وصفه للهند ، أشد المقاطعات الفارسية بعداً ، على مصادر غير مباشرة . إذ أنه لم يتجاوز فيه حدود نهر الهندوس ، وكان ناقصاً إلى حد بعيد . ولكن على الرغم من ذلك ، لا يخلو من فائدة ، إذ كان أول وصف عرفته المصادر اليونانية[٦٧] . ولعل أهم ما فيه ذكره للقطن لأول مرة فى التاريخ[٦٨]. وقد قال فى وصفه : « تنبت بعض الأشجار البرية فى الهند، نوعاً من الصوف ، الذى يفوق فى جماله وجودته صوف الغنم . وهذه الأشجار تزوّد الهنود بملابسهم » . وقال أيضاً : « كان الهنود الذين انخرطوا فى جيش كسركسيس يرتدون نوعاً من الصوف النباتى » .

ولعل مفخرة هيرودوت الكبرى ، هى وصفه لشعوب الأمم المختلفة ، وطبائعهم وعاداتهم . وقد ننكر أنه كان أبا التاريخ ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر ، بحال من الأحوال ، أنه كان أبا علم خصائص الشعوب[٦٩]. ولصنفه قيمة إثنولوجية ، فى المقام الأول . لأننا إذا أعملنا النظر فى المصادر التى استقى منها معلوماته (الملاحظة المباشرة والرواية الشفوية) ، نجد أن مزالق الخطأ فيها ، فيما يتصل بهذا الموضوع ، أقل منها فيما يتصل بسرد الأحداث التاريخية القديمة ،

أو العلاقات الجغرافية المعقدة (كمواضع الأنهار والجبال) . وعندما يتحدث عن البرابرة (الأجانب) ، يلاحظ أنواع الطعام الذى يأكلون ، وزواجهم وعاداتهم الجنسية[٧٠] ، وطبيعة مساكنهم ولغتهم ودينهم ، وخير مثل على الوصف الأثنولوجى ، هو حديثه عن السكيتيين ، الذين كانوا يقطنون شمالى البحر الأسود . وهذا الوصف المسهب ، يعد وثيقة أصيلة فى تاريخ روسيا ، لا يضاهيه فى ذلك ، إلا الوصف الذى خلفه لنا تاكيتوس (النصف الثانى من القرن الأول) ، بعد ذلك بخمسة قرون ونصف ، فيما يختص بتاريخ ألمانيا .

ويستهل هيرودوت وصفه بلمحة عامة عن البلاد والمناخ ، ثم ينتقل إلى الحديث عن آلهتهم ، ويذكر أسماءها باللغة السكيتية (ونحن لا نكاد نعرفها إلا عن هذا الطريق)[٧١] ، ثم يصف الشعائر الدينية ، والأضاحى ، والتقاليد العسكرية ، وطرق الكهانة ، وعادات المطببين ، وإعدام المجرمين ، وشعائر دفن الموتى . وقد راجع أوصاف هيرودوت هذه ، بعض علماء خصائص الشعوب ، وعلماء الآثار ، ووافقوه على جميع ما جاء فيها . وبرهنت الحفريات الحديثة ، على صحة وصفه لشعائر دفن الملوك السكيتيين ، وما يودع معهم فى القبر . وقد كان السكيتيون ، يتعاطون الحشيش بكثرة ، كما يتعاطى غيرهم من الشعوب القنب . وكانوا يذرون بذور الحشيش على حجارة محماة ، ليستمتعوا بحمامات البخار المخدرة[٧٢] . وهذه أول إشارة إلى هذا النبات ، (Cannabis sativa indica) الذى طالما استعمله ، وأساء استعماله ، أبناء الشعوب المختلفة ، (وخاصة فى الشرقين الأدنى والأوسط) ، منذ أقدم الأزمنة ، حتى يومنا هذا . وتاريخ القنب ، يكوّن فصلا من أطول الفصول ، فى دراسة تاريخ ميل الإنسان إلى المواد المخدرة .

ولنورد بإيجاز ، بعض الأمثلة الأخرى : أدخل العالم السويسرى ، فرديناند كيلر ، فرعاً جديداً من فروع الآثار ، هو دراسة سكنى البحيرات[٧٣] . وقد وصف هيرودوت ، سكنى البحيرات ، كما تجلى فى بحيرة براسياد فى مقدونية . ووصف طبائع سكان البحيرات وعاداتهم . وكتب معاصره أبقراط ،

الذى ينتمى إلى مدينة كوس[٧٤]، وصفاً موجزاً لسكان البحيرات فى كولخيس ، (فى الطرف الشرقى من البحر الأسود) .

ويذكر هيرودوت الأقزام فى ليبيا[٧٥] ، ولم يكن هذا الوصف جديداً ، إلا أنه يمتاز عما سبقه بأنه أكثر شمولا وأشد إقناعاً . وقد برهن المكتشفون المحدثون ، بدقة وإحاطة ، على وجود الأقزام ، وفعلوا ذلك عدة مرات (دوشلو ، وشفينفورت ، وستانلى)[٧٦].

وقد أشار إلى عهود الدم قال : « وهذه الشعوب — الليديون والميديون — تعقد عهوداً تقسم عليها ، كما يفعل اليونان . وبالإضافة إلى ذلك ، يجرحون أذرعهم ، ويلعق كل منهم دم صاحبه »[٧٧]. وكثيراً ما شاهد علماء الأجناس المحدثون ، هذه العادة[٧٨] .

وتحدث عن الوشم المقدس ، قال : « كان على الضفة (بقرب مصب الفرع الكانوبى للنيل) ، معبد لهرقل ، وهو ما يزال قائماً حتى اليوم . وكان إذا لجأ إليه أحد الخدم ، ووسم ببعض الإشارات المقدسة — دلالة على أنه وهب نفسه للإله — فإن هذا الشخص ، لا يمكن أن يناله أحد بسوء »[٧٩]. ويمكن أن نعترض على ذلك ، ونقول ، إنه يجب التمييز بين الوسم والوشم .

ووصف عبادة المصريين للحيوانات[٨٠]. والحكايات التى أوردها ، ليست من نوع الأساطير ، إذ قد ثبتت صحتها ، عن طريق علم الآثار والدراسات الخاصة بالطوطمية ، وهى فرع من علم خصائص الشعوب ، يرجع تاريخه إلى الربع الأخير من القرن الماضى فقط[٨١].

ولا حاجة بنا إلى الإسهاب فى إيراد مثل هذه الشواهد ، فالملاحظات الإثنولوجية ، أطرف ما فى مصنف هيرودوت ، وبلغت من طرافتها أنها لم تلاق ما تستحقه من التقدير حتى يومنا هذا . وقد تجاوزها أقدر الشراح فى القرن الماضى ، لأن علم خصائص الشعوب لم يكن قد عرف بعد ، أو أنه لم يكن قد بلغ درجة كافية من التنظيم ، وإن ما وجد منه لم يكن معروفاً لديهم فى ذلك الحين . وقد كانوا ، فى الأكثر ، من علماء الكلاسيكيات ،

أو من علماء الآثار ، أو من هؤلاء العلماء الذين وقفوا جهودهم على دراسة السياسة والدين فى العالم القديم ، وهكذا لم يدركوا أهمية الحقائق الإثنولوجية ، عندما عبروا بها . والحقائق التى يصنفها علم الأجناس اليوم تحت عنوان : المذهب الروحى ، والمحرمات (تابو) ، والطوطمية ، و « سكنى البحيرات » ، وما إلى ذلك[٨٢] ، كانت تنبذ على أنها من الغرائب أو البدع .

وبهذا يكون هيرودوت قد أرسى قواعد هذا العلم ، الذى سرعان ما اندثر بعد وفاته . وهذا لا يعنى أن اليونانيين لم يكونوا يعنون بالإنسان ، إذ كانوا يبذلون أعظم العناية لتفهم لغز الحياة . إلا أنهم بتأثير سقراط وأفلاطون وجهوا عنايتهم الفائقة إلى طبيعة الإنسان الداخلية ، وإلى مشكلاته الخلقية والسياسية ، وأهملوا دراسة طبائعه وعاداته : كيف يعيش الناس ، وكيف يعالجون مشكلاتهم اليومية ؟ كيف يتغذون ؟ وما الملابس التى يخيطونها ويرتدونها ؟ وأى نوع من البيوت يبتنون لسكناهم ؟ وما علاقاتهم الجنسية وروابطهم العائلية ؟ ولماذا يسلكون فى حياتهم هذا المسلك الذى نراهم عليه ؟ وكيف ينتقلون من طور الطفولة إلى طور المراهقة ، ومن العزوبة إلى الزواج ، ومن الشباب إلى الشيخوخة؟ وكيف يعاملون المريض والمعتوه ؟ وكيف يتخلصون من جثث موتاهم ؟ . . . لقد حاول هيرودوت أن يجيب عن أسئلة كهذه ، وقلّ من عنى بها ممن جاءوا بعده .

ظهرت بعض العناية بدراسة خصائص الشعوب فى القرن الثامن عشر ، ولكن قواعد هذا العلم لم توضع إلا فى القرن الماضى ، وفى أوائل هذا القرن . ولقد استطاع علماء خصائص الشعوب المحدثون ، أن يبرهنوا على صحة كثير من تلك الحقائق التى رواها أبو التاريخ ، والتى لم يعرها أجدادنا أدنى التفات . وكانت لها قيمة كبيرة ، لأنها أول أمثلة من نوعها .

ولقد قال أحد كبار علماء خصائص الشعوب فى عصرنا « إن هيرودوت يزداد كسباً يوماً بعد يوم »[٨٣]. وكثيراً ما لقب أبو التاريخ ، بأبى الأكاذيب ، إلا أن أكثر هذه الأكاذيب التى تنسب إليه ، لم تكن من بنات أفكاره ،

ولكنها ما تزال ثغرات ماثلة فى معلوماتنا . وإن قامته لتزداد شموخاً ، كلما قلّ جهلنا بعلم خصائص الشعوب .

ثوكيديديس الأثينى

لم يجر على قلمنا ذكر إسبرطة ، لأن فى استطاعتنا أن نؤرخ للعلوم اليونانية ، دون أن نذكرها . ولن تكون خسارتنا عظيمة حينئذ . ولكن من المستحسن أن نتحدث عنها بإيجاز . لا من أجلها هى ، ولكن لنتمكن من إدراك أهمية منافستها وعدوتها العظيمة أثينا .

كانت إسبرطة (أو لقدمونيا) ، التى تقع فى لاكونيكا ، المركز الأول للبيلوپونيز . وقد أغار عليها الدوريون الذين أصبحوا فيما بعد الطبقة الحاكمة فيها ، وأزاحوا سكانها الأصليين عن مكان الصدارة ، وجعلوا أكثر أهلها عبيداً . وقد كانوا فى زمن الغزو الفارسى ، أقوى فئة بين اليونانيين . ولكن النصر يعزى فى الأكثر إلى جهود الأثينيين ، وأدى إلى ازدياد نمو أثينا . وقد ازدهرت الإمبراطورية الأثينية وارتفعت معنوياتها ، فى فترة السلم التى أعقبت معركة سلاميس (سنة ٤٨٠ ق.م) ، وامتدت نحواً من نصف القرن . وأورى ذلك زناد الإسبرطيين تدريجاً ، فكان السبب الأول فى نشوب الحرب البيلوپونيزية (سنة ٤٣١ — ٤٠٤ ق.م) .

وربما كان من الأصح ، أن نعزو هذه الحرب إلى سبب أعمق ، وهو التباين التام بين الطرفين ، من حيث المزاج والمثل العليا . وذلك يعنى أن هذه الحرب ، كانت صراعاً بين الأيونيين والدوريين ، أى بين الديموقراطية والأرستوقراطية (حكم القلة) ، أو بين القوتين البحرية والبرية .

وقد حاول كل من الطرفين ، أن يدعم قوته ، وذلك بضم بعض جيرانه إليه كحلفاء . وهكذا انقسمت بلاد اليونان وأيونيا تدريجيًّا إلى فئتين من الأحلاف . وانقسم العالم بالتالى إلى قوتين متعاديتين ، كانت هوة الخلاف تزداد اتساعاً بينهما يوماً بعد يوم ، وكان لا مناص من أن يقع بينهما الاصطدام ،

إن عاجلا ، أو آجلا . وهكذا تنشب الحرب . وكانت معركة مدمرة ، شلت كلا من الطرفين المتخاصمين ، وأدت أخيراً إلى ضياع استقلال بلاد اليونان . ولا يتسع المجال للدخول فى التفاصيل ، ولكننا نستطيع أن نوجز قصة هذه الحرب على الوجه التالى :

كان يبدو ، فى بادئ الأمر ، أن أثينا تطبق يديها على جميع الأوراق الرابحة . فقد كانت أجزاء إمبراطوريتها ترتبط بأسطول عظيم . ولكنها فقدت المبادرة ، بسبب تفشى الطاعون (سنة ٤٣٠ – ٤٢٩ ق.م) ، الذى فتك بالأثينيين فتكاً ذريعاً ، وثبط عزائم من بقى منهم على قيد الحياة . وقد انتهت السنوات العشر الأولى من الحرب (سنة ٤٣١–٤٢١ ق.م) بصلح نيكياس[١٤] . وقد تم الاتفاق بين الطرفين ، على أن يستمر هذا الصلح خمسين سنة . ولكن الأيام برهنت على أنه لم يكن أكثر من هدنة مريبة لا تؤمن عواقبها .

وانتهت الحملة الصقلية ، التى قام بها الأثينيون سنة ٤١٥ ق.م . (كانت تضم ١٣٤ مركباً ، تحمل ٤٠٠٠ من الجنود المدججين بالسلاح) . بكارثة شاملة ، منى بها أسطول أثينا وجيشها ، وذلك فى معركة سرقسه سنة ٤١٣ ق م . وأدت السنوات العشر الأخيرة من هذه الحرب (٤١٣ – ٤٠٤) إلى استسلام أثينا وإذلالها .

وهكذ اندحرت أثينا ، وانتصرت إسبرطة . وإن كانت فى نظر الخلود ، لم تنتصر ، فى حين أن أثينا كتب لها أن تظل خالدة . إذ أن فوز إسبرطة ، لم يحل دون تقدم أثينا العقلى (كما سنرى فى الفصول التالية) ، وقد ظلت أثينا ، مدرسة لليونان ولأوربا ، وكل ما ينسب إلى اليونان من مجد ، مرده إلى أثينا لا إلى إسبرطة .

أضف إلى ذلك ، أن أهل إسبرطة لم يحتفظوا بسيادتهم المادية أمداً طويلا ، إذ تغلب عليهم أهل طيبة فى معركة لوكترا سنة ٣٧١ ق.م ، وفى الجيل التالى ، اضطر اليونانيون المنقسمون على أنفسهم ، أن يخضعوا لسيادة المقدونيين . إذ انتصر عليهم فيليب الثانى ، فى معركة شيرونيا سنة ٣٣٨ ق.م .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن الحروب الفارسية ، خلصت بلاد اليونان من الهمجية ، بينما كانت الحرب البيلوپونيزية ، الخطوة الأولى نحو تدهورهم وانهيارهم . وكانت الحرب الأولى ، مصدر إلهام هيرودوت ، أما الثانية ، فقد قدمت لنا مؤرخاً عظيماً آخر ، يعتبر من كبار المؤرخين فى كل زمان ، وهو ثوكيديديس .

كان ثوكيديديس بن أولوروس ، أثينى الأصل . ونحن نعرف شخصيته تمام المعرفة ، لكننا لا نعلم شيئاً عن تاريخ حياته ، حتى إننا لا نستطيع أن نعين بدقة تاريخ مولده ، ولا نعرف أين ومتى كانت وفاته . وأقرب هذه التواريخ إلى يقين المؤرخين ، هما حول سنة ٤٦٠ وسنة ٤٠٠ على التوالى . (أو بعد ذلك بقليل أى من سنة ٤٥٥ — ٣٩٥ ق.م) . وقد أصيب بالطاعون ، ولكنه شفى منه ، وهذا يدلنا على أنه كان يقيم فى أثينا سنة ٤٣٠ — ٤٢٩ . ويمكننا أن نقدر أنه كان من ذوى الثراء ، لأنه استطاع أن يحصل على إذن باستغلال بعض مناجم الذهب فى تراقيا[٨٥]. ويظهر أنه كان يملك ثروة كبيرة خاصة به ، وهذا ما ساعده على التفرغ لكتابة مصنفه . ويظهر أيضاً أنه عنى بعض الوقت بالشئون السياسية والعسكرية ، إذ أنه عين قائداً للجيش (strategos) سنة ٤٢٤ ، ولكنه لم يحتفظ بهذا المنصب زمناً طويلا ، لأنه فى نفس هذه السنة عجز عن إنقاذ مدينة أمفيبوليس ، ونفى لمدة عشرين عاماً[٨٦] . وقد توافر له بذلك الفراغ إلى بحوثه التاريخية ، ولعله قضى بعض هذه السنوات العشرين ، فى التجوال بحثاً عن الوثائق . ولعله أيضاً قضى أكثر هذه الفترة فى « سكبت هايل » (Scapte Hyle) حيث شعر بالطمأنينة ، وكان بعيداً عن الحرب ، بحيث أتيح له أن ينظر إليها بشىء من الحياد ، كما يُسر له العمل فى هدوء .

وإذا صحّ أنه كتب هنالك تاريخ الحرب الأهلية ، وهذا ما نعتقده ، فعلينا أن نعتبر « سكبت هايل » مكاناً مقدساً . ونستنتج من أقواله أنه استهل عمله عند بداية الحرب (سنة ٤٣١) ، وكان ما يزال عاكفاً عليه ، عندما حلت الكارثة بأثينا (سنة ٤٠٤) . وهذا لو فرضنا أنه قضى الفترة من سنة ٤٢٤

شكل رقم ٦٨–تاريخ ثوكيديديس ، الطبعة الأصلية (من القطع المزدوج — البندقية — الدومانوزيو — مايو ١٥٠٢) ومما هو جدير بالذكر أن الطبعة الأصلية من مصنفي هيرودوت وثوكيديديس ، نشرهما الدومانوزيو ، في نفس السنة (١٥٠٢) . ونحن نثبت هنا الصفحة الأولى من الأصل ، وهي تبدأ بهذه العبارات المعروفة : « ثوكيديديس الأثيني كتب تاريخ الحرب . . . » أما الفراغ الذي يبدو في أعلى الصفحة ، على الشمال ، فقد ترك لملأه الرسام بصورة مزخرفة للحرف الأول . وقد وضعت علامة ثيتا (ϴ) صغيرة لهدايته (عن نسخة موجودة في مكتبة كلية هارفارد) .

حتى سنة ٤٠٤ (أو الجزء الأكبر منها) ، فى سكبت هايل ، فمعنى هذا أنه بدأ فى كتابة تاريخه قبل النفى ، ثم أتمه بعده . والكتاب يبدأ على الوجه التالى (راجع الشكل رقم ٦٨) :

« ثوكيديديس الأثينى ، كتب تاريخ الحرب التى شبت بين البيلوپونيزيين والأثينيين ، وقد استهل عمله عند بداية الحرب ، لأنه اعتقد أنها ستكون أعظم وأهم من كل ما سبقها من حروب . وحمله على هذا الاعتقاد ، أن كلا من الطرفين أعد للحرب ما استطاع من قوة ، وأن الشعوب الهلينية جميعاً اشتركت فى هذه الحرب ، فانحازت إلى هذا الطرف أو ذاك . وبعضها سارع إلى هذا الانحياز ، والبعض الآخر عقد العزم على ذلك ، وكانت هذه الحرب ، أعظم حركة أثرت فى الهلينيين ، بل امتد أثرها إلى بعض الشعوب الأخرى . ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنها أثرت فى مجموعة كبيرة من الجنس البشرى » .

وقد أدرك المؤلف أهمية عمله هذا تمام الإدراك ، وتبيّن له وجه الحقيقة منذ البداية ، إذ أن الخصمين كانا يستعدان لخوض غمار هذه الحرب منذ أمد بعيد ، ولم تكن فى حقيقتها حرباً أهلية تنشب داخل أمة من الأمم فحسب ، بل جرت إليها أمماً أخرى (ولم ينتصر الإسبرطيون أخيراً إلا بمساعدة الفرس) .

* * *

وفى نظر الفيلسوف ، كل حرب هى فى حقيقتها حرب أهلية . وهذا الحكم يصح على الحرب البياوپونيزية بوجه خاص ، تلك الحرب التى قسمت الجنس إلى معسكرين . وقد نقح ثوكيديديس مصنفه بعد سنة ٤٠٤ ، وكتب له مقدمة جديدة ، جاء فيها :

« كتب تاريخ هذه الحوادث ، ثوكيديديس الأثينى نفسه ، متتبعاً تسلسل الوقائع ، فى الصيف والشتاء ، حتى ذلك الوقت ، الذى تمكن فيه الإسبرطيون وحلفاؤهم ، من أن يضعوا حداً لحكم أثينا ، واستولوا على أسوار بيرايوس . وبهذا الحادث ، تكون الحرب قد استغرقت ، فى مجموعها ، سبعاً وعشرين

سنة . وإذا كان هنالك من لا يرى من الصواب إضافة فترة الهدنة ، إلى مدة الحرب ، فإن حكمه خاطئ . ولابد له أن ينظر إلى الأمور ، على ضوء الحقائق كما وقعت . حتى يتبين له أن تلك الهدنة لم تكن فى الحقيقة فترة سلم ، توقف فيها كل من الطرفين عن استعادة أو تسلم كل ما اتفق عليه . . . وهكذا إذا جمعنا مدة السنوات العشر الأولى ، التى استمرت فيها الحرب ، إلى مدة الهدنة المزعومة التى تلتها ، وحسبنا ذلك بحساب فصول السنة ، وجدنا أن عدد السنوات ، هو العدد الذى ذكرنا مضافاً إليه بضعة أيام . أما إذا نظرنا إلى الأمر بعين أولئك الذين تحققوا من وقوع المعجزات ، فإنه سيجد أن هذه الحقيقة بالذات كانت صحيحة . لأننى أذكر أنه كان يقال دائماً ، منذ بداية الحرب حتى نهايتها ، إن هذه الحرب ستستمر تسع سنوات مضاعفة ثلاث مرات . ولقد عاصرت هذه الحرب ، وكنت فى سن تسمح لى باستنتاج الأحكام ، كما أننى تتبعت حوادثها بدقة ، لكى أتمكن من جمع المعلومات الصحيحة »[٨٧] .

ولقد ظل مصنفه ناقصاً . لأنه على الرغم من هذا القول الذى اقتبسناه آنفاً ، لم يتعد ثوكيديديس فى كتابته سنة ٤١١ . أما تقسيم المصنف إلى ثمانية كتب ، فقد قام به على الأرجح علماء الإسكندرية . وأما نسبة الجزء الثامن إليه ، فهى موضع نظر . فقد نسب ، فى صورته التى وصلت إلينا ، إلى ابنة ثوكيديديس ، وإلى كسينوفون ، وكذلك إلى ثيوبومبوس الذى ينتمى إلى بلدة الخيوسى . ومن الثابت أن الاثنين الأخيرين ، كتبا « الهلينيكا » ، لتكملة كتاب ثوكيديديس . وكتاب ثيوبومبوس المفقود ، يكمل التاريخ من سنة ٤١١ حتى سنة ٣٩٤ . أما كتاب كسينوفون ، الذى بين أيدينا ، فإنه يتناول فترة أطول ، أى من ٤١١ حتى معركة منتينيا الثانية (Mantinea) ، سنة ٣٦٢ ق.م. ويعكس الكتاب الثامن ، جميع خصائص ثوكيديديس فى التأليف ، إلا أنه يخلو من الخطب .

وليست الفصول الثلاثة والعشرون الأولى ، من الكتاب الأول ، سوى مقدمة

تدور حول علم الآثار ، وتمر بالحوادث التى جرت من سنة ٤٧٩ إلى سنة ٤٤٠ مرًّا سريعاً . وبهذا يكون قد وصل تاريخه بتاريخ هيرودوت ، وشرح مقدمات الحرب الجديدة . ووقف بقية الكتاب على الحرب نفسها ، حيث وصف أحداثها باعتدال وتجرد ، وأتى بها تبعاً لتسلسلها التاريخى . وحدد السنة الأولى من الحرب (سنة ٤٣١ ق.م) ، بذكر أسماء حكام أثينا وإسبرطة ، لكنه بعد ذلك كان يذكر السنوات بترتيبها ، أى السنة الأولى ، والسنة الثانية . . وهكذا ، ولم يكن يذكر الأشهر الأثينية . وكانت التقاويم المختلفة الشائعة فى عصره ، مصدر فوضى واضطراب ، ولهذا لم يعرها أدنى اهتمام . وكان يميز فى كل سنة ، بين الفصل المعتدل Theros ، والفصل الردىء (cheimon) . وعندما يحتاج إلى مزيد من الدقة ، كان يشير إلى الحوادث الزراعية ، كقدوم الربيع ، واستواء الحنطة على سوقها ، وتذريتها فى الهواء ، وجنى الكروم ، والأيام الجميلة الأخيرة . . وهكذا وضع وصفه للحرب ، فى هذا الإطار التاريخى المحكم . وكثيراً ما كان يضطر إلى الانتقال المفاجئ من أحد أجزاء بلاد اليونان ، إلى جزء آخر ، وهذا مما يضايق القارئ . إلا أننا لا نملك إلا أن نعترف له بسلامة المنهج ، إذ أنه كان يربط بين البيئة الجغرافية والحوادث التاريخية . وهذا خير ما يفعله المؤرخ العلمى ، حتى لا يضل سبيله وحتى يأمن الزلل والعثار . وأنا أستعمل كلمة « العلمى » عن قصد ، لأن ثوكيديديس كان مؤرخاً علمياً بالمعنى الدقيق للكلمة . وهو أول من يستحق هذا اللقب فى العالم . ويعتبر كتابه أول رائعة أدبية فى النثر الأتيكى (أما هيرودوت فقد كتب مصنفه باللهجة الأيونية) . بل هو فضلا عن ذلك ، أول محاولة لوصف الحرب ، أسبابها وتقلباتها ، بطريقة رجل العلم ، ذى الدربة والمران ، أو قل بطريقة الطبيب ، الذى يصف تقلبات المرض . وقد تجنب الخرافات والالتباسات ، وقال فى ذلك مفتخراً :

« قد يكون خلو كتابى من بعض الخرافات ، سبباً فى جعله منفراً للأذن . ولكن لعل هنالك من يرغب فى أن يلتقط فكرة واضحة عن الحوادث التى حدثت ،

أو التى يحتمل أن تحدث فى يوم من الأيام ، بنفس الطريقة ، أو بطريقة مشابهة لها . وحسبى أن يجد مثل هؤلاء الناس ، كتابى هذا مفيداً لهم »[٨٨].

والكلمات الأخيرة التى تنتهى بها الترجمة الإنكليزية يقابلها فى اليونانية (Ctema es aiei) وكثيراً ما أشير إليها خطأ ، كأن كلمة ctema هى mnema (أى تذكارى) ، وكأنهم ظنوا أن ثوكيديديس ، قد قال متعجباً . كما فعل هوراس : (Exegi monumentum aere perennius) لكن الأمر لم يكن كذلك . فإن ثوكيديديس لم يكن يفكر فى مجده الشخصى ، بل كان يفكر فى قيمة كتابه ، شأنه فى ذلك شأن كل عالم مخلص. وقد بذل جهوداً مضنية ، فى سبيل الحصول على نتائج لها قيمة خالدة .

أما المصادر التى اعتمد عليها ، فهى تجربته الخاصة ، ثم معلوماته التى استمدها من بعض الرواة . وكان فى بعض الحالات ، يعتمد على وثائق خاصة ، يدمجها فى روايته ، فمعاهدة نيكياس ، مقتبسة بحذافيرها[٨٩]، وكذلك نصوص الحلف الذى كان بين الأثينيين والأرجيفيين والمنتينيين والإيليين . وقد عثرت الجمعية الأثرية فى أثينا على جزء من هذه المعاهدة ، سنة ١٨٧٧ ، على لوحة من الرخام قرب الأكروبول . ونص هذه النقوش يتفق والنص الذى أورده ثوكيديديس ، ويعد هذا دعماً عظيماً له . وقد كان ثوكيديديس لا ينتمى إلى حزب ما ، على الرغم من إخلاصه العظيم لبركليس . أو لنقل إنه كان معتدلا فى تحيزه ، وإن كان دائماً مستعداً لأن يستمع إلى وجهات نظر الأطراف الأخرى ، وأن يتفهمها ويشرحها بأمانة وعطف . فقد دربت تعاليم السوفسطائيين الحرة الأثينيين على أن ينظروا إلى الموضوع من وجهيه المتقابلين ، وأن ينظروا إلى الشخصية ، من نواحيها المختلفة . ولا يعنى هذا أن جميع الأثينيين أفادوا من هذا التدريب . إلا أن عقلية ثوكيديديس ، كانت على أتم الاستعداد للانتفاع به .

وقد كانت غايته الأولى دائماً ، أن يكون صادقاً ، قدر الإمكان ، مهما كانت الظروف . وكان يستشعر أحاسيس العالم الذى لابد له أن يصور

التجارب السيئة . والفشل مؤثر حقاً[٩٠] ، إلا أن هنالك لذة فى وصفه بصدق . وقد رسم صوراً دقيقة للزعماء والقادة . ووصفه لبركليس خير مصدر يعتمد عليه لدراسة شخصيته وسياسته ، وخاصة فى السنوات الأخيرة (من سنة ٤٣٣ — ٤٢٩ ق.م) . وهو يصور لنا رجلا كان فى استطاعته أن يعمل المستحيل ، إذ أنه كان قادراً على أن يكبح جماح الشعب ، دون أن يحد من حريته[٩١] ، أى إنه كان يحفزه على قبول النظام المفروض . وكأنما اختاره بنفسه . وقد كان من دواعى سرور ثوكيديديس ، أن يصف عبقرية بركليس السياسية ، إذ كان معجباً به إلى حد بعيد ، إلا أنه استطاع أيضاً أن يكون منصفاً فى موقفه من بعض الرجال الذين كان لا يميل إليهم . وبهذه الروح ، وصف قسوة كليون وأمانة نيكياس التى يكتنفها الجبن وتختلط بها الأوهام ، والتهور الرائع الذى أبداه ايكيبياديس . ولم يكن رأيه فى الرجال ، متوقفاً على نجاحهم أو عدمه ، فقد يخطىء الحظ الرجل الطيب ، ولكن شخصيته تنم عن جوهره .

ويظهر حياده وموضوعيته وأمانته ، على أحسن صورة ، عندما يتناول المسألة الأساسية ، وهى خصائص الديموقراطية الأثينية ، مقارنة بالحكم الاستبدادى فى إسبرطة وقد دافع عنها بركليس ، فى خطابه الجنائزى[٩٢] وهو يعد من أنبل الأحاديث السياسية . وذكرى خالدة لا تفنى ، لا لبركليس الذى ألقاه فحسب ، بل أيضاً لهؤلاء الأثينيين الذين استمعوا إليه ، ولأمهم مدينة أثينا . كم كانوا عظماء ، هؤلاء الرجال الذين استحقوا أن تتلى على مسامعهم مثل هذه الرسالة الكريمة . وهى طويلة إلى حد يحول دون اقتباسها كاملة ، وليس فى استطاعتى إلا أن أقدم نماذج منها . قال :

« إننا نحب الجمال ولكن دون إسراف ، ونحب الحكمة ولكن دون ضعف . أما الثروة فإننا نعتد بها لا لتكون موضع تفاخر ، ولكن لتعيننا على تحقيق أعمالنا . ونحن لا نعيب الرجل الذى يعترف بفقره ، ولكننا نعتبر العيب كل العيب ألا يسعى الرجل إلى اجتنابه . وستجدون فى بعض رجالنا اهتماماً بالشئون الخاصة ، وبالشئون العامة فى آن واحد . ولن تفتقدوا فى البعض

الآخر ، وخاصة هؤلاء الذين يعنون بالعمل ، نفاذ البصيرة فى الشئون السياسية . لأننا لا نعتبر الرجل الذى لا يسهم بنصيب فى الشئون العامة ، رجلا أنانياً يعنى بشئونه الخاصة فحسب ، بل رجلا لا يصلح لشىء من الأشياء »(٩٣).

وكلماته الأخيرة :

« لقد تحدثت إليكم الآن ، طبقاً للقانون ، بتلك الكلمات التى وجدتها صالحة للمناسبة . أما هؤلاء الذين جئنا لنواريهم التراب ، فقد نالوا من تقديرنا ما يستحقون . وزيادة على ذلك ، ستعول الدولة أطفالهم من الآن فصاعداً ، حتى يبلغوا طور الرجولة . وبهذا نكون قد توجنا الموتى وورثتهم بتاج ذى قيمة حقيقية ، مكافأة لهم على ما قدمت أيديهم فى هذا النضال . إذ أنه حيث تكون الجوائز التى تقدم مكافأة للفضيلة كبيرة ، نجد المواطنين الصالحين . والآن بعد أن ذرفتم على الموتى ما هم أهل له من دموع ، وبكى كل منكم موتاه ، لكم أن تنصرفوا »(٩٤).

والأمريكيون لا يستطيعون أن يقرأوا هذه الكلمات المشرقة ، دون أن يتذكروا خطاب لنكولن فى جتسبرغ . وإنه لمما يشرف هذين الزعيمين — على بعد ما بينهما فى الزمان والمكان — أن خطابيهما الجنائزيين ، متشابهان كل التشابه ، من حيث النبل والرصانة .

أما الرأى الآخر فى الموضوع ، فقد عرضه ثوكيديديس على لسان « كليون بن كلينيتوس الذى كان أول من وفق إلى إقناعهم بوجوب إفناء الميثيليين ، ولم يكن من أشد المواطنين قسوة فحسب ، بل كان فى ذلك الوقت أيضاً أبعدهم تأثيراً على الشعب »(٩٥).

قال كليون :

« لقد أدركت فى مناسبات كثيرة مرت بى أن الديموقراطية لا تصلح لحكم الشعوب الأخرى »(٩٦) ومضى كليون فى حديثه مبيناً أن الديموقراطية والسيادة الإمبراطورية لا يتفقان .

وهكذا كان الأثينيون ، حوالى نهاية القرن الخامس ، يمرون بالأزمة نفسها التى يمر بها البريطانيون والفرنسيون والهولنديون والأمريكيون اليوم .

ومن المؤلم حقاً ، أن نقرأ بركليس وكليون اليوم ، فى هذا الوقت الذى تمر فيه الديموقراطية بتجربة جديدة ، أعظم من كل تجربة سبق لها أن عانتها . وعلينا أن نتأمل جيداً كلمات بركليس الخالدة ، وأن نعير تحذيرات كليون أيضاً بعض الالتفات .

وقد ساعد ثوكيديديس معاصريه ، وما يزال يساعدنا نحن اليوم ، على تفهم الفروق الأساسية بين الرجال . وبعض هذه الفروق فطرى ، وبعضها الآخر نتيجة للظروف ، وإن كان راسخاً فى أعماقهم . وكان عمله الخاص ، أن يقارن بين الخصمين العنيدين ، أثينا وإسبرطة . فقد وُصف الأثينيون (فى الخطاب الجنائزى مثلا) ، بالرغبة فى العلم والتشوف إليه ، واتساع الأفق وحسن الضيافة ، والكياسة والذوق السليم والكرم ، والقلق . بينما يتصف الإسبرطيون ، بالضعة والحمية والأنانية والتوانى والهدوء والرجعية والحذر والغيرة والإصرار والصبر . وإنه لمن المزعج ، أن يكون خصمك من هذا النوع من البشر ، (الذين قد يكونون رجالا فضلاء ، ولكن بطريقتهم الخاصة) . وهذان النموذجان البشريان ما يزالان موجودين بين ظهرانينا حتى اليوم . والحرب بين أثينا وإسبرطة لم تنته بعد ، وقد لا تنتهى أبداً . وهذا الوصف العلمى الذى قدمه لنا ثوكيديديس ، كان أكثر تمثيلا وصدقاً مما لو حاول أن يجعله أشد تأثيراً ، فيصبح بذلك كمذكرات المحامين أقل موضوعية ، وأقل تجرداً . وليس هنالك ، على تراخى الزمن ، ما يوازى الحقيقة ، من حيث تأثيرها .

وقد يأسف الإنسان حقاً ، لأن ثوكيديديس كان حريصاً كل الحرص على التقيد بخطته ، ولذا نحّى جانباً كل ما لا يدخل ضمن نطاق غرضه . فلم يصف لنا المجتمع فى ذلك الوقت ، كما لم يصف لنا تلك الآثار التى لا تبارى ، مما خلفه لنا أهل الفن والمفكرون من اليونانيين . لقد كان هذا العصر ، من العصور الذهبية ، وكم يكون قيماً وصف أحد المعاصرين له ، وخاصة إذا كان

هذا المعاصر على مثل ذكاء ثوكيديديس وحساسيته . ومهما يكن من أمر ، فلاشك أنه كان من رجال العلم (ولا أستطيع إلا أن أردد ذلك دائماً) ، إذ أنه أدرك أن البحث العلمى ، لابد أن يقتصر على موضوع ضيق النطاق واضح المعالم . ولم يقدم لنا ثوكيديديس صورة عن عصر أثينا الذهبي ، وبدلا من ذلك، استطاع أن يقدم لنا وصفاً أميناً دقيقاً ، ما أمكنه ذلك ، لمعركة الحياة والموت ، التى خاضتها أثينا ضد خصم حقود لا تهدأ ثائرته وكانت هذه غايته ، ولذا يجب ألا يصرفه عنها أمر من الأمور .

ولقد قيل إن أسلوب ثوكيديديس تغير ، أو ان نظرته اختلفت خلال الثلاثين سنة التى قضاها فى التأليف . وحاول علماء اللغة أن يثبتوا ذلك بواسطة النقد الداخلى . ولكن إذا عرف الإنسان أن ثوكيديديس ، كان ينقح كتابه دائماً ، وأنه من المحتمل أن يكون جزء من الكتاب الأول قد روجع فى الوقت الذى روجع فيه جزء من الكتاب السابع ، فإن مثل هذا النقد لا يركن إليه . وعلى الرغم من ذلك كله لابد لنا أن نتقبل هذا الرأى بوجه عام . فإن ثوكيديديس كان ، لاشك، ناضجاً عندما بدأ فى تأليف الكتاب، إلا أن خبرته أخذت فى الازدياد ، ولابد أن يكون لإخفاق صلح نيكياس والحملة الصقلية أثر فى تبدل نظرته . وليس من الطبيعى ، ألا تتغير شخصيته بعد هذه الوقائع الفظيعة . وطرأ عليه ، ما يطرأ عادة على كل عالم يشتغل بمشروع طويل الأمد . فهو لا يستطيع أن يدفع عن نفسه عوادى التغير ، كلما نما عمله بمرور الأيام .

ولنعد ثانية إلى الفصول الأولى من كتاب ثوكيديديس، وهى التى تضم المقدمة الأثرية . ومما هو جدير بالتنويه، أنه رأى ضرورة ملحة لكتابة مثل هذه المقدمة . والسبب فى ذلك أن ثوكيديديس كان عصرياً (شأنه فى ذلك شأن أبقراط الكوسى كما سنرى فيما بعد) . وكان شعوره بعصريته لا يقل عن شعورنا نحن بذلك . كما أنه كان يحس بأثر الماضى الطويل ، الذى أدى إلى خلق الحالة الحاضرة ، ولهذا كان لابد له أن يلخص تجارب الماضى . ومما يثير الدهشة فى نفوسنا ،

أنه استطاع أن يضطلع بهذا العمل (مع تقدير الوسائل المتاحة له) ، كما نضطلع به اليوم . مثال ذلك أنه افترض أن وصف هوميروس للحرب الطروادية لابد أن يكون مبنياً على بعض الحقائق ، مهما أسرف خياله الشعرى فى الزخرفة والتنميق . وعندما تحدث عن الجزر الإيجية قال :

« وسكان الجزر أشد تعلقاً بالقرصنة . ومنهم الكاريون والفينيقيون . ويظهر أن الكاريين كانوا يعمرون أكثر الجزر ، وهذا يتضح لنا من الحقيقة التالية : عندما طهر الأثينيون فى هذه الحرب جزيرة ديلوس ، ونقلت قبور جميع من ماتوا فى الجزيرة ، تبين أن أكثر من نصف الموتى كانوا من الكاريين. وقد استنتج ذلك من نوع الأسلحة التى دفنت معهم ، ومن طريقة الدفن ، التى ما تزال متبعة عندهم حتى الآن »[٩٧].

وثوكيديديس هو الوحيد بين الكتاب القدامى ، الذى اعتمد على الشواهد الأثرية ، لتبيان أصول اليونانيين . ويمكننا أن ندعوه « أبا علم الآثار » ، كما دعونا هيرودوت « أبا علم خصائص الشعوب » .

والمقدمة أيضاً تلقى ضوءاً على فلسفته التاريخية ، لأن وصفه يكشف عن فكرة تطورية ، على عكس الفكرة الرجعية التى عبر عنها هزيود ، والتى كانت سائدة حتى القرن السابع عشر . وروايته[٩٨] التى أوردناها سابقاً ، تنم عن إمكانية التكرار فى الشئون الإنسانية . ولكنه لم يتوسع فى شرح هذه الفكرة ، ولهذا ليس من حقنا أن نقارنها بفكرة أفلاطون عن تكرار الدورات أو العود المستمر . وربما عنى بذلك ، ببساطة ، ما يعنيه رجل العلم ، أى إذا تكررت الظروف المتشابهة فالنتائج قد تكون واحدة . ومن الظروف التى يترتب على المؤرخ أن يحسب حسابها الشهوات الإنسانية ، وهذه لا تتغير تغيراً كبيراً ، باختلاف الزمان والمكان . وهكذا قد تساعد دراسة الماضى المؤرخين على أن يتنبأوا بنتائج الصراع الذى يحتدم بين بنى الإنسان ، شأنها فى ذلك شأن التقارير الإكلينيكية ، التى تساعد الأطباء على التنبؤ بالتطورات المتوقعة التى قد تطرأ على الأمراض .

وقد طبق ثوكيديديس نزعته الحيادية الموضوعية على نفسه أيضاً . فهو لا يكاد يذكر إدانته ونفيه ، ولا يحاول أن يعتذر . فهل نعزو ذلك إلى شعوره بالازدراء ، أو إلى ضميره النقي ونفسه المتعالية ؟ أو إلى الموضوعية العلمية ؟ الأغلب أن ذلك كان نتيجة لهذه العوامل الثلاثة مجتمعة ، وخاصة العامل الأخير .

ولكن من أين توافرت هذه النظرة العلمية لثوكيديديس؟ . لاشك أن صفات الموضوعية والتجرد ، التي ساعدت على تكوين هذه النظرة ، كانت فطرية لديه . قد يكون هنالك بعض العوامل الخارجية التي تشجع على ظهور مثل هذه النزعة ، أو تعترض سبيلها . وساعدت ثقافته على توكيد مثل هذه الصفات . فقد جلس إلى أنتيفون الرمنوسي ، وغيره من السوفسطائيين . وإذا كانت السوفسطائية أصبحت مقيتة عندنا ، حتى إننا لا نستطيع أن ندرك ما كان لها من قيمة في القرن الخامس . فعلينا أن نتذكر ، مبدئياً ، أن أكثر الأثينيين ، كانوا بالضرورة يعرفون معنى الحقيقة الجدلية . وكان لابد لأعضاء المحاكم الشعبية أن يقدروا القيم النسبية لمختلف المرافعات التي تلقى على مسامعهم ، فكيف يتيسر لهم ذلك ؟ كيف يتيسر لهم أن يفاضلوا بين خطيبين ، يدافع كل منهما عن وجهة نظره الخاصة في إحدى الخصومات السياسية ؟ ومن النادر أن يكون أحد الحزبين نقياً نقاء لا تشوبه شائبة ، وأن يكون الثاني على العكس من ذلك . فليست الأمور على مثل هذه البساطة . وهذا لا يمنع أن ينحاز أعضاء الحزب الواحد إلى حزبهم انحيازاً أعمى . وقد كان السوفسطائيون — وعلى الأقل النخبة الكريمة منهم — في ذلك الحين ، يعلمون الشبان أن يتجنبوا الأهواء الحزبية والضغائن ، وأن يزدروا الأكاذيب والخرافات . وكان في ذلك خير إعداد للتفكير المنطقي العلمي . وهؤلاء الرجال الذين كانوا يقولون إن الحق نسبي ، لم يكونوا ساخرين ولا متشككين . وبفضل خبرتهم السياسية ، كانوا يدركون تمام الإدراك تلك المشكلات التي كانت تنتج عن الهوى وضيق الأفق . وقد تتيسر معرفة الحق في الخصومات العلمية المحض . أما في الشئون السياسية ، فإن أول شرط لكشف الحقيقة ، هو التمسك بموضوعية الشيء والتسامح واللين مع

الخصم . وكان ثوكيديديس على أتم الاستعداد لتفهم هذه التعاليم ، بفضل عبقريته . وقد بلغ الحد المستطاع من اتساع الأفق . والحرص على الناحية الموضوعية .

ومكنه حبه للحق من أن يرى الوقائع ، وأن يسجلها بإخلاص ، وأن يصنفها ، (كما يصنف العالم ملاحظاته ، ويختزلها فى نظام) وكان قديراً على أن يرى الأشياء كما هى Sub specie aeternitatis ولم يعن ، بوجه عام ، بالناحية الخلقية للحوادث ، بل يكتفى بوصفها . وصف الفساد الذى تمخض عنه الطاعون ، الذى حدث نتيجة للاضطرابات الأخرى التى رافقت صراعاً لم تكن له نهاية . وهو موضوع يعرفه جيداً أولئك الذين يدرسون الحروب .

وكان أسلوبه ، كعقله ، أميناً وصارماً ، يكتب بحماسة وإيجاز ودقة ووضوح وحيوية . أورد التفاصيل بالدقة التى أمكنه الحصول عليها . وكان الوصف العام ، على حظ كبير من الاتزان . ولم يتردد ماكولى ، الذى كان من أعظم مؤرخى الإنجليز ، فى أن يقول : « ليس هناك أثر نثرى — حتى كتاب دى كورونا نفسه[٩٩] — يبلغ فى تقديرى كتاب ثوكيديديس السابع ، إنه الكتاب الذى لا يعلى عليه Ne plus ultra ، فى الفن البشرى » . (الكتاب السابع يتناول الحملة الصقلية المشئومة ، التى كانت السبب الأول للهزيمة الفادحة التى منيت بها أثينا) . وماذا يستطيع المرء أن يقول أكثر من ذلك ؟ ومن يستطيع أن يقول مثل هذا القول ، وله أعظم من هذه السلطة ؟

وقد هاجم جميع النقاد ، مكررين ومسهبين ، إحدى خصائص أسلوب ثوكيديديس فى الكتابة . ألا وهى عادته فى تضمين كتابته الأقوال الأصلية (وهى خاصة يشاركه فيها بعض المؤرخين القدماء) . فلنستمع إليه إذن :

« أما فيما يختص بتلك الخطب التى ألقاها بعض الرجال ، عندما أوشكت نيران الحرب أن تشتعل ، أو أثناء الحرب ، فقد كان من الصعب استعادة ألفاظها بدقة . والأمر سواء ، بالنسبة إلى الخطب التى سمعتها بنفسى ، أو تلك التى نقلها لى الرواة من مختلف المصادر . ولهذا فإننى أقدم هذه الخطب ، باللغة التى يلوح لى أن هؤلاء الخطباء عبروا بها ، فيما يتعلق بهذه الموضوعات ،

قيد البحث ، وبالعواطف التى تناسب المقام . ومع هذا حاولت أن أتقيد بالمعنى العام ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا »[١٠٠].

أليس ذلك من الوضوح بمكان ؟ فعندما يستقر فى الذهن ، أن هذه الخطب لن تثبت حرفيًّا ، فليس هنالك كبير فرق بين كتابتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، بإثبات علامات الاقتباس أو بالاستغناء عنها ، وكتابة الخطب ، على هذه الصورة ، كانت طريقة شائعة لا ينخدع بها أحد . وكانت طريقة ضرورية ، أو لها ما يبررها على الأقل . لأن القدامى لم يكونوا يملكون الوسائل التى تمكنهم من استيعاب الخطب نفسها ، اللهم إلا إذا شهدوا الحفل بأنفسهم ، وكانت لهم ذاكرة قوية . وليس لهذه الطريقة ما يبررها اليوم ، لأنه من اليسير الحصول على النصوص الحرفية للخطب[١٠١] .

وهنالك سؤال أخير ، قد يجول فى خاطر القارئ المتأمل ، وهو : كيف استطاع أثينى وطنى أن يصف هذه الأحداث الفاجعة ، التى أدت إلى هزيمة بلاده ، بمثل هذا الحياد ؟ لقد سبق أن أجبنا على هذا السؤال ، أو عن جزء منه . فلاشك أن ثوكيديديس كان وطنيًّا ، شديد الحب لديموقراطية أثينا ، إلا أنه كان من ناحية رجل علم ، يضع إخلاصه للحقيقة فوق كل إخلاص . ومن ناحية أخرى ، كان إيمانه بالديموقراطية عميقاً ، حتى إنه كان لا يعترف بأن هزيمة أثينا كانت أبدية . فقد بقيت أثينا أو كان من الممكن أن تبقى — كما كانت سابقاً ، مدرسة اليونان (tês Hellados paideusis)[١٠٢] وقد بين بيركليس فى خطبة الجنازة ، أن الثمرة الأولى للديموقراطية ، هى التثقيف ، لا مجرد النجاح . وعلى الرغم من تلك التغيرات العظيمة ، تابعت أثينا حمل رسالتها فى تثقيف اليونانيين ، والعالم الغربى عامة . وبهذا برهنت برهنة تامة على ما كان يؤمن به بركليس وثوكيديديس .

طاعون أثينا (سنة ٤٣٠ — ٤٢٩ ق. م) :

بعد نشوب الحرب بعام واحد ، اضطر سكان أتيكا إلى اللجوء إلى أثينا ،

وذلك بسبب غزو الإسبرطيين لبلادهم . وهكذا اكتظت المدينة بالسكان ، وكانت العناية الصحية ضعيفة ، ولهذا كانت الظروف أشد ما تكون ملاءمة لانتشار الطاعون . وقد تفشى الطاعون فعلا ، وكان فتاكاً . ولنقتبس وصف ثوكيديديس له ، وهو أول وصف مفصل للطاعون ، فى الأدب العالمى ، قال :

« فى أول صيف سنة ٤٣٠ ، غزا البيلوپونيزيون وحلفاؤهم أتيكا ، بثلثى قواتهم السابقة ، تحت قيادة أرخيداموس بن زيوكسيداموس ملك اللقدمونيين . وبعد أن ثبتوا أقدامهم ، تقدموا إلى نهب البلاد . وقبل أن يقضوا فى أتيكا بضعة أيام ، ظهر الطاعون لأول مرة بين الأثينيين . وقيل إنه ظهر فى عدة أمكنة قبل ذلك ، فى ليمنوس مثلا ، وفى غيرها . ولم يعرف طاعون تفشى على هذا النطاق ، ولا كارثة فتكت بالأرواح هذا الفتك الذريع ، فى أى بلد من البلاد . فلم يكن هنالك أطباء يستطيعون مكافحة الداء ، إذ أنهم أقدموا فى بادئ الأمر على علاجه ، دون أن يعرفوا كنهه . وكثرت الوفيات بينهم ، لأنهم كانوا كثيرى التعرض له ، ولم يكن هنالك وسيلة بشرية أخرى . ولم تنفعهم الابتهالات فى المعابد ، ولم يجدهم اللجوء إلى المعجزات وما يشبهها فتيلا . وما لبثوا أن أشاحوا وجوههم عنها ، عندما قهرتهم الكارثة .

« وقد قيل إن الداء تفشى أولا فى إثيوبيا ، فيما وراء تخوم مصر ، ثم زحف على مصر وليبيا ، وانتشر فى معظم بلاد الملك . ثم ما لبث أن انقض ، على حين غرة ، على مدينة أثينا . وهاجم أولا سكان بيريه . وقال الناس هناك ، إن البيلوپونيزيين سمموا أحواض شربهم ، إذ لم يكن هناك ، حتى ذلك الوقت ، ينابيع عامة للشرب . ولم يلبث أن بلغ المدينة العليا أيضاً ، ومنذ ذلك الحين أخذ عدد الوفيات فى الازدياد . وهنا أصبح كل إنسان ، سواء أكان من الأطباء أم من العامة ، يدلى برأيه فيما يختص بالمصدر الذى تحدر منه ، ويذكر الأسباب التى يتراءى له أنها مبررات كافية لحدوث هذا الحدث الكبير الخارج على المألوف . ولكننى سأصف المجرى الحقيقى الذى سار فيه ، وأشرح أعراضه التى لو استوعبها إنسان ما ، لأصبح قادراً — بما يتوافر لديه

من معرفة سابقة به — على اكتشافه لو اتفق أن تفشى مرة ثانية ، وذلك لأننى شخصياً أصبت بالداء ، ورأيت أناساً أصيبوا به .

وقد أقر الجميع ، بأن هذه السنة كانت على غير العادة خلواً من أى مرض من الأمراض الأخرى . أما الأشخاص الذين صادف أن كانوا مصابين بمرض من الأمراض آنذاك ، فقد برئوا منه لدى هجوم الداء الجديد . وفى حالات أخرى ، كان الأصحاء يصابون فجأة ودون سبب ظاهر بحمى مرتفعة فى الرأس ، وباحمرار والتهاب فى العينين ، وباطن الشدقين . وسرعان ما يصبح الحلق واللسان فى لون الدم ، ويصعد المصاب أنفاساً غريبة كريهة الرائحة . وفى المرحلة الثانية يبدأ العطاس والبحة ، وفى وقت قصير ينتقل الاضطراب إلى الصدر ، ويصحبه سعال شديد . وعندما يستقر فى المعدة ، يختل نظامها ، ويتلو ذلك تقيؤ ، يلازمه جميع أنواع الصفراء التى يعدد الأطباء أسماءها . ويشعر المريض فى ذلك كله ببلاء عظيم . وفى أكثر الحالات يتلو هذا تجشؤ بسبب انتفاضات شديدة ، قد تزول بسرعة وفى أحيان أخرى تستمر فترة طويلة . وإذا جسست الجسد من الخارج ، لا تحس بحرارة شديدة . ولم يكن لون البشرة شاحباً ، بل أحمر ضارباً إلى الزرقة ، تتفجر منه بعض البثور والتقرحات ، ولكنه كان من الداخل ، يتأجج حرارة ، حتى إن المصابين لا يحتملون أن تغطى أجسامهم بأرق الدثر أو الأغطية الكتانية . ولهذا يؤثرون أن يظلوا دون غطاء ، بل يفضلون على ذلك أن يقذفوا بأنفسهم إلى الماء البارد — وقد رمى أكثر المرضى المهملين أنفسهم فى أحواض الماء بالفعل — وكم أضناهم سعار العطش الذى لا تنقع له غلة ، سواء شربوا كثيراً أم قليلا ، وكان الانزعاج والأرق اللذان لا ينقطعان ، يقضان مضاجعهم . ولم يكن الجسد يفنى ، والمرض فى أوج شدته ؛ بل كان يقاوم بدوات الداء مقاومة عجيبة ، حتى إن المريض عندما كان يسلم الروح ، بسبب الحرارة التى تتأجج فى داخله — فى اليوم السابع أو التاسع كما حدث لأكثرهم — كان لا يزال محتفظاً ببعض قوته . وعندما يجتازون الأزمة ، ينحدر المرض إلى

أحشائهم ، حيث يسبب تقرحاً شديداً ، ويؤدى إلى إسهال حاد . وأكثر المرضى ، يهلكون فى هذه المرحلة ، بسبب الهزال الذى ينتج عن الإسهال . لأن الداء الذى بدأ فى الرأس أولا ، أخذ يتحدر حتى انتشر فى جميع الجسم ، فإذا قدر للإنسان أن ينجو من هذا الخطر ، تمكن الداء من الأطراف على الأقل ، وترك آثاره هناك ؛ لأنه ينقض على العورات ، وعلى أصابع اليدين والقدمين ، وكثيراً ما يفتدى المريض نفسه بضياع هذه الأجزاء منه ، على أن بعضهم كان يفقد عينيه أيضاً . وفى بعض الحالات كان يفقد المريض ذاكرته عقب المرض مباشرة ، وينسى كل شىء حتى إنه لا يتعرف إلى نفسه أو إلى أصدقائه[١٠٢].

حقاً أثبتت طبيعة المرض ، أنه من النوع الذى يفوق حد الوصف . وقسوة الداء كانت فى كل مرة أكثر مما تحتمله الطبيعة الإنسانية . وفى حالة واحدة برهن ببساطة على أنه يختلف عن أى مرضٍ من الأمراض المعروفة ، وذلك أن الجوارح والحيوانات التى تدب على أربع مما يغتذى عادة باللحوم البشرية ، كانت لا تقترب من الجثث ، مع أن أكثرها كان يطرح فى العراء دون دفن . وإذا حدث أن ذاقت منها شيئاً فإنها سرعان ما تموت[١٠٣] .

ولا ينتهى الوصف هنا ، ولكننا أوجزنا أهم ما جاء فيه مما يتعلق بالناحية الطبية . ولنلاحظ أن الأثينيين عزوا الطاعون فى بادئ الأمر ، إلى تسميم العدو لأحواض الشرب عمداً . وهذه الظاهرة تتجلى فى الأوصاف العديدة ، التى وصلتنا عن الطواعين . حتى القرن السابع عشر[١٠٤]. والوصف الذى جاء به ثوكيديديس ، يبدو واضحاً للعامة ، إلا أنه لا يعتبر كافياً من حيث التشخيص الطبى . وربما كان الداء جديداً ، أى إنه كان نتيجة لظهور بعض الميكروبات ، التى لم تكن أجسام الأثينيين مستعدة لمقاومتها ، ولعل هذا ما يبرر قسوته وفتكه (على الرغم من أن شدة الزحام والجوع والقذارة ، تبرر جزءاً كبيراً من ذلك ، حتى لو كان الميكروب قديماً) . ونحن نعلم أن الأوبئة ، إذا اجتاحت أرضاً بكراً ، فإنها تفتك بها فتكاً ذريعاً ، كما حدث فى الطاعون الأسود فى منتصف

القرن الرابع عشر ، والزهرى فى نهاية القرن الخامس عشر[١٠٥]، ووباء الجدرى الذى اجتاح الأزتكيين سنة ١٥٢٠[١٠٦]، والكوليرا الأوربية الوافدة سنة ١٨٣١ — ١٨٣٢ ، ووباء الحصبة فى جزائر الفيجى سنة ١٨٧٥ . ويمكننا أن نستشهد بأمثلة مشابهة نستمدها من تاريخ الأوبئة التى تغزو عالم النبات والحيوان، ككارثة الدودة الغجرية التى ظهرت فجأة فى ولاية ماساتشوستس سنة ١٨٨٩ ، وفلسة سان جوزيه فى ولاية أمريكا الشرقية سنة ١٨٩٣ ، ودودة القطن فى تكساس سنة ١٨٩٤ ، وما إلى ذلك .

وقد يكون طاعون أثينا الأول من نوعه ، ولم يتكرر ثانية فى التاريخ . ومن الطبيعى ألا يقاس رد فعل شعب لم يغزه الداء بعد ، إلى رد فعل شعب غزاه الداء ، وحصل على نوع من الاعتياد والمناعة .

وقد بذلت عدة محاولات لتحديد نوع طاعون أثينا ، إلا أن تكرار المحاولات يدل على شك العلماء فى النتيجة . ولم يكن شىء من تخميناتهم مقنعاً ، إذ أن النتيجة لم تكن قطعية . ولم تعد طور التخمين والظن . فهل كان طاعوناً قرحيًّا ، أم مرض الجدرى . أم حمى التيفوس أم حمى التيفوئيد ؟ لقد قدر شروزبرى ، عقب بحوثه الأخيرة ، أنه ليس إلا حصبة[١٠٧]، وذلك أمر محتمل . وتحتوى رسالته على ثبت طويل بالمراجع ، إلا أنه لم يذكر كتاب «ثوكيديديس» لفاينلى[١٠٨]. والمؤلف فى هذا الكتاب القيم ، يقدر (أو يكرر) أن الداء لم يكن من النوع المعدى ، بل كانا تسمماً تعفنيًّا[١٠٩]. ولعل الحصبة هى خير تخمين ، ولكن أنى للإنسان أن يتأكد من ذلك ؟

ومما يدل على افتقار أكثر المؤرخين (ومنهم المعاصرون أيضاً) ، إلى العقل العلمى ، أنهم اعتبروا وصف ثوكيديديس الطبى للمرض ، نوعاً من الاعتساف والرهق . ولكن ذلك لم يكن بالنسبة إلى عقل ثوكيديديس العلمى ، تعسفاً أو رهقاً ، بل كان من صميم موضوعه ، فقد كانت الخسائر الصحية التى نتجت عن الطاعون فادحة . كما كانت النتائج المعنوية أشد فداحة . وباستطاعة الإنسان أن يقول إن الطاعون كان البداية التى أدت إلى الهزيمة النهائية ، التى منيت

بها أثينا . وبعد هذا كله ، ألا يستدعى الأمر معرفة كنه الطاعون ؟ وكيف تفشى ؟ وكيف تلاشى ؟ هذه قضية واضحة تحتاج إلى تقصى الأسباب والتحليل والدراسة (Prophasis, Diagnosis, Therapeia) . وليس لنا أن نتهم ثوكيديديس بالخطأ، لأن تحليله لم يكن مفيداً ، إذ أنه أدى واجبه على كل حال، أى واجب المؤرخ العلمى .

ومما هو جدير بالذكر أيضاً ، أن لوكريتيوس (النصف الأول من القرن الأول ق.م) ، أعظم شاعر فلسفى ظهر فى العصر القديم ، أدرك الأهمية الحقيقية لهذا الوصف ، وأعاده فى صورة مخيفة حين ختم به قصيدته « طبيعة الأشياء »[١١٠] . معتمداً على ما جاء فى كتاب ثوكيديديس .

أوردنا قصة الطاعون بشىء من الإسهاب ، وبلغة المؤلف نفسه ، لأنها تكاد تكون الجزء التاريخى الوحيد ، الذى يعنى مؤرخى العلوم مباشرة . أما وصفه للإشارات الضوئية التى كانت ترسل من قمم الجبال[١١١]، فقد تهم مؤرخى التكنولوجيا . ولكن هذا النوع البدائى من الإشارات التلغرافية ، لابد أن يكون قد استعمل قبل ذلك الوقت بأمد طويل[١١٢]. إذ أننا نعلم أن كثيراً من الشعوب البدائية اعتادوا أن يبلغوا بعض رسائلهم بالمشاعل أو الطبول، وقد كان قرع الطبول خاصة يمكنهم من إرسال إشارات غاية فى التعقيد .

ويحتوى مصنف ثوكيديديس أيضاً ، على إشارات إلى ثلاث حوادث كسوف وخسوف ، وهى : الكسوف الذى وقع فى٣ أغسطس سنة ٤٣١[١١٣]، والكسوف الحولى الذى وقع فى ٢١ مارس سنة ٤٢٤[١١٤]، والخسوف الذى وقع فى ٢٧ أغسطس سنة ٤١٣[١١٥]. وهذه الحوادث التى وقعت فعلا تساعدنا على توكيد أمانة المؤلف .

هيرودوت وثوكيديديس :

بعد أن تعرفنا إلى أعظم رائدين من روّاد علم التاريخ عند اليونان ، نستطيع أن نقف لحظة لنقارن بينهما :

كان كل منهما نوعاً قائماً بذاته . ومما هو جدير بالملاحظة أن أمة واحدة استطاعت أن تهديهما للبشرية ، فى خلال نصف قرن واحد . وقد عاشا عمرين متقاربين (فقد توفى كل منهما وهو فى العقد السادس من عمره) ، وكانت الفترة التى تفصل بينهما عشرين سنة . وهكذا عاصر كل منهما الآخر ، ذلك النوع من المعاصرة الذى يكون بين الآباء والأبناء . وكانت فترة عشرين سنة تعتبر شيئاً ذا قيمة ، فى عصر البطولة ذاك وإن لم تكن شيئاً مذكوراً . والفرق الأساسى بينهما ، فيما يختص بالظروف المحيطة ، أن هيرودوت كان وليد الحرب الفارسية ، بينما شهد ثوكيديديس الحرب البيلوپونيزية . وكذلك كان هيرودوت كاريًّا ، يكتب باللغة الأيونية . بينما كان ثوكيديديس أثينيًّا أبدع النثر الأتيكى . انحدر الأول من تخوم الهلينية ، بينما كان الثانى من صميمها .

وكانت ثقافة هيرودوت فى صباه عملية تجارية ، بينما كان ثوكيديديس من تلامذة السفسطائيين الأثينيين ، وإذا ما قارناه بسلفه نستطيع أن نعتبره من خريجى الكليات .

لكن الفروق بين شخصيتيهما ، أكبر فى الحقيقة من الفروق بين الظروف التى أحاطت بهما . وأتيح لكل منهما أن يتمرس بنفس التجارب التى تمرس بها الآخر . فكانت تراقيا من بلاد التخوم ، كما كانت كاريا . وكانت الحربان سواء من حيث الشدة ، وقد رحل كل منهما ، وتعرف إلى أصناف مختلفة من البشر .

ولكن هيرودوت طبعاً أتيح له أن يسافر أكثر من خلفه . وكانت رحلاته هى الإطار الكبير الذى كون إطار مصنفه . وقد درس فترة أطول من التاريخ الماضى ، وعرف عالماً أكثر اتساعاً (جميع oicumene فى الواقع) ، ورسم على رقعة نطاق أوسع . ويعتبر ثوكيديديس بالنسبة إليه ، كراسم المنمنمات ، بالنسبة إلى راسم اللوحات الكبيرة ، إذ أنه عنى بالعالم اليونانى فقط ، وبفترة تقع فى سبعة وعشرين عاماً — وإذا حذفنا المقدمة فلا يتناول كتابه أكثر من

عشرين عاماً مقابل ألف عام . وبلاد اليونان ، مقابل العالم المأهول بأجمعه .

وقد كان هيرودوت قاصًّا موهوباً مادته غزيرة . وكان طلعة . صبيانيًّا . فيثاجوريًّا ، نصف شرقي . يحب العجائب والغرائب . وكان أسلوبه سلساً متدفقاً طليًّا . أما ثوكيديديس . فإنه لم يحصر جهده في موضوع صغير فحسب ، بل إنه تقيد به تمام التقيد . وكان عقله صارماً صرامة أسلوبه والضحك عنده غير مباح . وكان سياسيًّا واقعيا ، إيجابيا في تفكيره ، ورجل علم .

أما مقاييس الدقة عندهما فمتباينة . فقد بذل هيرودوت شيئاً من الجهد في البحث عن الحقيقة . وكان يقولها بإخلاص ، ولا يعفيها من النقد . ولكن أنى للإنسان أن يلم بالجغرافية البشرية لجميع العالم ، بالإضافة إلى تاريخ الشرق القديم ؟ ومن ناحية أخرى ، كان من الممكن إن لم نقل من السهل . أن يقص الإنسان بدقة الاضطرابات العسكرية والسياسية ، التي وقعت بين أكبر شعبين من شعوب اليونان ، في فترة لا تتجاوز الثلاثين عاماً . وقد عنيا معاً بالإنسان . أما عناية هيرودوت فكانت عناية الرحالة المثقف . وأما ثوكيديديس فكان شأنه في ذلك شأن السوفسطائي ورجل السياسة .

وفي النتيجة النهائية شيء من الغرابة . فمصنف هيرودوت يحتوي على مواد تهم مؤرخ العلوم . بينما نجد أن كتاب ثوكيديديس أكثر أهمية في نظر دارس التاريخ السياسي . وقد يروق لمؤرخ العلوم أن ينحيه جانباً . ولكن من الخطأ أن يفعل ذلك . وعلى وجه الإجمال ، يعتبر مصنف ثوكيديديس أثراً من آثار علم التاريخ . واتجاهه إلى تطبيق الأسلوب العلمي في دراسة الماضي يعتبر الأول من نوعه ، وهو من أهم الآثار في نظرنا اليوم .

وإذا تركنا جانباً ، وصفه لبعض الأفكار الرياضية ، والبحوث الطبية . لابد لنا أن نعتبر مصنفه أعظم أثر علمي ظهر في ذلك العصر الذهبي .

كتيسياس الكنيدوسي :

من المستحسن أن نتحدث عن مؤرخ ثالث ، هو كتيسياس الذي ينتمي

إلى كنيدوس . وهو أقل أهمية من هيرودوت وثوكيديديس . وأقل شهرة منهما . لأن مصنفى هذين المؤرخين . وصلا إلينا كاملين . بينما لم يقع فى أيدينا إلا نتف من كتاب كتيسياس . ومع هذا تعتبر شخصيته فذة من عدة نواح . وأول ما يطالعنا فيه أنه يساعدنا على أن نفهم . أن فارس واليونان . على ما كان بينهما من الاختلاف . بل من العداء . لم تكونا منفصلتين تمام الانفصال . كما أن فارس لم تكن معزولة عن الهند . فقد كان الناس يمرون من بلد إلى بلد . كما يمرون اليوم . رغم القيود الموضوعة . من روسيا إلى الغرب وبالعكس .

وفوق ذلك . كان كتيسياس طبيباً . وقد ولد فى كنيدوس[١١٦] ، حيث ازدهرت مدرسة طبية متألقة ، ولم يكن طبيباً فحسب . بل كان أبوه وجده كذلك . وقد أسره الفرس ، حوالى سنة ٤١٧ ، وعين حاجباً فى البلاط الفارسى . وكان طبيباً لدارا الثانى (٤٢٤ — ٤٠٤) ولأرتاكسركسيس الثانى . منيمون (٤٠٤ — ٣٥٨) . وقد كانت باريساتس الملكة ، وأخت دارا . حاميته الأولى . وظلت قوية فيما بعد . إذ كانت الملكة الوالدة . وقد ساعد أرتاكسركسيس فى معركة كوناكسا[١١٧] . سنة ٤٠١ . وعقب ذلك مباشرة أرسل مبعوثاً إلى حكام قبرص[١١٨] اليونانيين . ولم يعد ثانية إلى فارس . إذ ولى وجهه شطر بلده كنيدوس (٣٩٨) ، التى لم تكن بعيدة جدا . وفى كنيدوس كتب آثاره . والأغلب أنه قضى الشطر الأخير من حياته أيضاً فيها . وهكذا تكون آثاره كتبت فى أوائل القرن الرابع ، ونتناوله بالحديث فى هذا الفصل لأن كتاباته نتيجة خبرته التى تمرس بها فى الشرق ، وقد جمع أكثرها فى القرن السابق .

وأهم آثاره « الفارسى » (Persica) ، ويدور حول تاريخ آشور وفارس ، ويقع فى ثلاثة وعشرين كتاباً ، و « الهندى » (Indica) ، وهو مجلد واحد يدور حول الهند . (الشكل رقم ٦٩) . وقد حفظ ديودورس الصقلى (النصف الثانى من القرن الأول ق.م) ، أجزاء من هذه الكتب ، وكذلك

فعل نقولا الدمشقى (النصف الثانى من القرن الأول ق.م) وسواه . إلا أن فوتيوس القسطنطينى ، (النصف الثانى من القرن التاسع) هو خير من عنى به . وقد يعترض عليه بأنه راوية متأخر جداً . ولكن التأخير هنا لا يؤثر كثيراً ، إذ يظهر أن فوتيوس كان يحتفظ بالمخطوطات الأصلية فى حوزته . ففى فهارسه (Bibliotheca or Myriobiblon) (التى أتمها قبل سنة ٨٥٧) ، جمع خلاصات ما يقرب من ٢٨٠ كتاباً ، ضاع أكثرها . فمقالته عن « الفارسى » مثلا تبدأ على الوجه التالى : « اقرأ مؤلفاً لكتيسياس الكنيدوسى ، اسمه " الفارسى " ، يقع فى ثلاثة وعشرين كتاباً . والسنة الأولى ، تتناول تاريخ آشور ، وتنبئ عن بعض الأحداث التى سبقت الوقائع الفارسية » . وهذا العرض ، فى نصه اليونانى ، يقع فيما يقرب من ٨٥٠ سطراً .

وعرضه للكتاب الثانى ، يبدأ على الصورة ذاتها : « اقرأ " الهندى " ، لنفس المؤلف ، وهو يقع فى جزء واحد . وقد استعمل اللهجة الأيونية فى كتابته » . وهذا العرض أصغر حجماً من السابق ، ويقع نصه اليونانى فى حوالى ٤٤٢ سطراً .

ولقد نشر ر . هنرى [١١٩] ، طبعة يونانية فرنسية متقنة للملخصات فوتيوس . ولكننا نحتاج حقا ، إلى طبعة جديدة مصححة ، لكل أقسام كتاب كتيسياس وإ (the Doxography) التى تنسب إليه[١٢٠].

أما الكتب الستة الأولى من كتاب « الفارسى » ، التى خصصت للتاريخ الآشورى ، فقد حفظها لنا ديودورس الصقلى . ونحن مدينون لنقولا الدمشقى بوصف هزيمة أستياجس ، ملك ميديه ، التى أوقعها به قورش سنة ٥٤٩ ، وببداية السيطرة الفارسية . أما ما تبقى من تاريخ فارس (حتى سنة ٣٩٨) ، فقد لخصه فوتيوس الذى عزا المؤلف إلى هيرودوت .

وقد استقى كتيسياس معلوماته عن التاريخ الفارسى من هيرودوت ، الذى طالما تناوله بالنقد ، وأضاف إليها الكثير من المعلومات التى حصل عليها أثناء إقامته الطويلة فى البلاط الفارسى . ويمكننا أن نتصور أن الملك

ΕΚ ΤΩΝ ΚΤΗΣΙΟΥ, ΑΓΑΘΑΡΧΙΔΟΥ, ΜΕΜΝΟΝΟΣ
ἐκλογαὶ ἱστορικαί.
ΑΠΠΙΑΝΟΥ Ἰβηρικὴ καὶ Ἀννιβαϊκή.

Ex Cæſia, Agatharchide, Memnone excerptæ hiſtoriæ.
Appiani Iberica. Item, De geſtis Annibalis.

Omnia nunc primùm edita. Cum Henrici Stephani caſtigationibus

EX OFFICINA HENRICI
Stephani Pariſienſis typographi.
AN. M. D. LVII.

شكل رقم ٦٩

مصنف كتيسياس ، الطبعة الأصلية (باريس ، هنرى ايتيين ١٥٥٧ Paris, Henri Estieune 1557) من القطع الصغير . وهذه هى صفحة العنوان ، وقد استطعنا أن نقرأ فيها : هذه هى الطبعة اليونانية الأولى ، لا لكتاب كتيسياس فحسب ، بل لمقطوعات من أجاثارخيديس الكنيدوسى (١ — II ق .م) أيضاً ، ولأخرى من ممنون الذى ينتمى إلى هرقلية بونطيقا (القرن الأول ؟) ، ولأخرى من إبيانوس الإسكندرى (٢ — II) . أما هنرى ايتيين الثانى (باريس ١٥٣١ — ليون ١٥٩٨) ، محقق الكتاب وناشره ، فإنه ينتمى إلى أسرة فرنسية شهيرة ، اشتغلت بالطباعة ، والحركة الإنسانية ، وبيع الكتب . (عن نسخة موجودة فى مكتبة كلية هارفارد) .

أو مساعديه كانوا يقصون عليه القصص ، أو أن الملكة المتغطرسة باريساتس ، ووصيفاتها كن يفعلن ذلك . وأكثر من هذا لم يكن سوى إشاعات ملفقة ، تحتاج إلى تمحيص كثير ، حتى إننا نستطيع أن ندعوه — لا أبا التاريخ كما دعونا قرانه — ولكن أبا الحكايات التاريخية ، وهو لقب لا يشرفه كثيراً .

وعلينا أن نستغل الحكايات التاريخية ، عندما تعوزنا المادة التاريخية النقية . والمعلومات التى جمعها كتيسياس ، كانت فى الغالب مفيدة جدا . وعندما نراه يناقض هيرودوت لا يحق لنا أن نتسرع ونحكم بأن ما أتى به هيرودوت هو الصحيح ، مع أنه ، على وجه العموم ، يمكن الاعتماد عليه أكثر من كتيسياس .

ويمكننا أن ندرك جيداً افتقاره التام إلى التمحيص من وصفه للنقش البهشتونى[١٢١] ، الذى أقيم سنة ٥١٦ ق.م . وهو يقص خبر انتصار دارا الأول على أتباعه العصاة . وقد كتب بالخط المسمارى ، بثلاث لغات هى الفارسية والعيلامية والأكادية . وهذا النقش له أهمية كبيرة فى نظر علماء اللغات ، لأن النقوش المتشابهة ، تساعد على حل رموز اللغات المجهولة . وقد دعى بحجر رشيد المسمارى (أو الأشورى) . أما كتيسياس الذى وجد بعد إقامة هذا النصب بقرن ، على الأكثر ، حين كانت الروايات المتداولة عنه لا تزال شائعة ، فقد قال إنه كتب بالأحرف الأشورية ، ونسبه إلى الملكة الآشورية سميراميس ! وقد يظن الإنسان أن معلومات البلاط الفارسى عن هذا الموضوع كانت أكثر دقة . إلا أن سميراميس الأسطورية ، كانت بطلة روايته الآشورية الرومانسية .

وقد وصف هيرودوت طريق الإمبراطورية الفارسية الرئيسى ، الذى يمتد من أفسوس إلى سوس ، إلا أن كيتسياس تابع الوصف حتى بلغ باكتريا والهند (ووصفه هذا مفقود) .

وهنالك قصة أخرى موثوقة رواها كتيسياس . وهى تلك التى تتعلق بوجود القار والنفط فى بابل :

« ومع أن المشاهد التى يمكن أن يقع عليها النظر فى بابل كثيرة ورائعة ، إلا أن كمية القار الهائلة التى تنتجها البلاد لا تقل روعة عن كل ذلك . وقد بلغ إنتاجه كمية عظيمة ، حتى إنه لا يكفى لإشادة أبنيتهم الكثيرة الضخمة فحسب ، بل إن عامة السكان الذين يقطنون تلك البقعة يستنبطونه دون قيد ، ويجففونه ليستعملوه وقوداً بدلا من الحطب . وعلى الرغم من أن عدد الأهالى الذين يستفيدون منه كبير جدا ، فإنه يبقى على حالته ، ولا ينضب له معين ، وكأنه يفيض من عين ثرة . ونجد إلى جانب هذا المنبع حفرة أخرى لا تقارب الأولى فى حجمها ، إلا أنها ذات أثر كبير ، إذ أنها تنفث بخاراً كبريتيا كثيفاً ، يقتل جميع المخلوقات الحية التى تقترب منه ، وهى تؤول إلى نهاية سريعة عجيبة . إذ أنها تفارق الحياة بعد أن تصاب بضيق النفس فترة من الزمن ، وكأن تلك الآفة التى طرأت على جهاز التنفس هى التى كانت تحول دون خروج النفس . وسرعان ما يتورم الجسم وينتفخ ، وخاصة فى المنطقة التى تحيط بالرئتين . وتقع على النهر أيضاً بحيرة ضفتها صلبة ، وإذا ما خاضها امرؤ ليس له بها سابق معرفة ، فإنه يستطيع أن يسبح فيها فترة قصيرة من الزمن ، ولكنه عندما يقترب من الوسط يأخذ فى التقهقر إلى الخلف ، وكأنه مدفوع بفعل قوة خفية ، وعندما يحاول أن يستجمع قواه ، ليعود إلى الشاطئ ثانية»، فإنه يشعر وكأن شيئاً ما يشده إلى الخلف شدا ، على الرغم من أنه يبذل جهده كى يفك إساره . ثم يصاب بالتشنج الذى يتسرب إلى قدميه أولا ، ثم يصعد إلى ساقيه حتى الحقوين ، ثم ما يلبث أن يتفشى فى جميع جسمه . فيغور إلى القاع ، ثم تقذفه الأمواج وقد أسلم الروح »[١٢٢].

وهذا الوصف يؤكد ما ذكره هيرودوت[١٢٣]، عن القار فى أيس[١٢٤]. إلا أن وصفه للهند كان أكثر إمعاناً فى الخرافة من وصفه لفارس . فقد عاش كتيسياس فى فارس عدة سنوات قضاها بين ظهرانى الفرس . ولكنه لم يسبق له أن زار الهند ، ولهذا يبدو لنا فى أخباره عنها وكأنه ينظر إليها بمنظار فارسى . فالهند تعنى ، فى نظره ، إقليم الهندوس ، والهيداسبس . ومن العجيب

أن كتيسياس لم يتحدث عن تاكسيلا ، التى كانت حينئذ أعظم مدينة فى ذلك الإقليم (إقليم البنجاب) . ولكن هذا كله لاينتقص من قيمة « الهندى » ، لأنه بقى عند الغربيين ، المصدر الوحيد للأساطير الهندية ، لفترة طويلة من الزمن .

ولنعد إلى الناحية الطبية . فهنالك فصل يتعلق بالخربق الأسود[١٢٥]، فى مجموعة أورباسيوس الطبية[١٢٦]، وهو منقول عن كتاب كتيسياس وفحواه ما يلى :

« كان ابى وجدى لا يجرؤان على وصف الخربق الأسود ، لأنهما لم يكونا يعرفان طريقة تجهيزه ، والكمية التى يجب أن تعطى للمريض . وكان الرجل إذا نصح المريض بتجرع الخربق يطلب إليه أن يكتب وصيته أولا . وكان يختنق عدد كبير من هؤلاء الذين يتجرعونه ، وقل من بقى منهم على قيد الحياة . ولكن استعماله اليوم أصبح مأمون العواقب » .

وهذا القول ينطوى على فائدة عظيمة ، لأنه يكشف لنا عن تطور علم الأقرباذين فى كنيدوس خلال انصرام أجيال ثلاثة . ويظهر أن أطباء كنيدوس كانوا يجرون بعض التجارب الطبية ، ويراقبون نتائجها .

ويستنتج من كثرة الرجوع إلى مصنف كتيسياس ، فى المصادر اليونانية والبيزنطية ، أنه كان مؤلفاً مرموقاً . ويظهر أن عدد الذين قرأوا كتابه يفوق عدد أولئك الذين قرأوا كتاب هيرودوت . حتى إن رجالا كأفلاطون وأرسطو كانوا على علم به . ويمكننا أن نفترض أيضاً ، أن الإسكندر الأكبر ، تلميذ أرسطو ، اطلع عليه . وينبئنا نيارخوس (٢ – ٦٧ ق.م) ، قائد أسطول الإسكندر ، أن الملك كان معجباً بالحكايات التى تروى عن سميراميس وقورش[١٢٧]. وخيال الرجال العمليين يتأثر عادة بالأساطير ، أكثر مما يتأثر بسرد الحقائق العلمية . ويظهر أن كتاب هيرودوت كان من الجفاف العلمى بحيث لا يروق للملك العظيم ، بينما كان كتاب كتيسياس أكثر جاذبية . وبهذا يتحمل كتيسياس طرفاً من المسئولية ، فى حملات الإسكندر الآسيوية .

تعليقات

(١) Henry Fanshawe Tozer (1829-1916), *History of ancient geography* (1897); second edition with notes by M. Cary (Cambridge: University Press, 1935) (Isis 26, 537 '1936'). E.H. Warmington, *Greek Geography* (London: Dent, 1934) (Isis 35, 250 '1944'), anthology of Greek and Latin Extracts translated into English J. Oliver Thomson, *History of ancient geography* (cambridge:University Press, 1948) (Isis 41, 244- '1950').

(٢) بالإضافة طبعاً إلى عالمين من علماء التاريخ هما هيرودوتس وكتيسياس . وآثارهما مليئة بالمعلومات الجغرافية .

(٣) هيرودوت الكتاب الرابع ، الفصل ٤٤ ، وما اقتبساه فى هذا الفصل جميعه أخذناه من ترجمة A.D. Godley's (Loeb classical library vol. 2, p. 243). لأنه من خير ما يوضح هيرودوت ، كما أنه مرجعنا الوحيد فيما يتعلق بسكيلاكس . وقد كانت باكتيكا غربى الهندوس ، وهى المنطقة التى تدعى جلال أباد فى شمال شرقى أفغانستان . ولم يتمكن سكيلاكس من الإبحار فى الهندوس ، « فى اتجاه الشرق » ، لأن مجرى النهر يسير فى اتجاه الجنوب الغربى . وكانت جغرافية هيرودوت ، بوجه عام ، غامضة . وهل من الممكن أن تكون معلوماتنا عن المناطق النائية أكثر دقة إذا لم يكن لدينا خرائط ؟ وعبارة « الفينيقيون الذين ذكروا آنفاً » ، تعنى ستسبس الذى لم يكن فينيقياً ، والذى جاء بعد سكيلاكس . ولكن السنوات التى يذكرها هيرودوت كانت دائماً غير دقيقة . لأنه لم يكن لديه تقويم بالسنين .

(٤) فى كاريا التى تقع فى الزاوية الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى . وقد كانت كريندة ، على جزيرة صغيرة لا تبعد عن هاليكارناسوس ، مسقط رأس هيرودوت ، كثيراً . وربما كان هيرودوت قد سمع بعض الروايات المحلية التى تدور حول سكيلاكس .

(٥) لم تعرف حقيقة الرياح الموسمية إلا فى زمن هيالوس ، الذى ظهر فى القرن الأول قبل المسيح أو بعده راجع : Tomson, *History of Ancient Geography* pp. 176;

(٦) Dhow or dow; See Henry Yule and A.C. Burnell, *Hobson-Jobson, A glossary of colloquial Anglo-Indian words anal phrases* (new ed. by William Crooke, London 1903), p. 314. Dhow navigation as practiced to day has been beautifully described by Alan Villiers, *Sons of sinbad* (New York : Scribner 1940) See also Richard Le Baron Bowen, Jr., Arab dhows of Eastern Arabia (64 pp., 37 ills.;Rehoboth, Massachusetts: privately printed, 1949) (*Isis* 42; 357 '1951').

(٧) Claude Bourdon, *Anciens canaux, anciens sites et ports de Suez* (Cairo 1925), pp. 12-30, pl. 2. ونقش داريوس يوجد فى the stela of al Kabrit ، التى تقع الآن فى حدائق

هيئة قناة السويس بالاسماعيلية .

(٨) ربما كان رأس كانتين ، ٣٦° ٣٢° شمالا ، وفى العربية رأس الخديق ؟ . ويقع على الساحل المراكشى على خط عرض جزائر المديرا (٤٠° ٣٢° شمالا) .

(٩) هيرودوت الكتاب الرابع الفصل ٤٣ (الترجمة المشار إليها فى هامش رقم ٣ ج ٢ ص ٢٤١) .

(١٠) خط عرض رأس الرجاء الصالح هو ٢٢° ٣٤° جنوباً . حتى هنرى الملاح نفسه (١٣٩٤ — ١٤٦٠) لم يستطع تصور حجم أفريقيا ، واعتقد أن القدماء استطاعوا أن يدوروا حولها .

(١١) أرسل القرطاجيون حملة مسلحة إلى صقلية بقيادة هملكار . وقد باءت بالإخفاق ، وقتل هملكار سنة ٤٨٠ . وقد كان المظنون أولاأن هنون هو ابن هملكار ، وعلى أساس هذا أرخت حملته بسنة ٤٧٠ . إلا أن هذا الظن لا دليل عليه ، واسم « نون » شائع فى قرطاجة . والأفضل أن نتمسك بأن الحملتين كانتا متعاصرتين . وأن حملة هملكون وقعت فى أول القرن .

(١٢) suffete (سوفيت) ، اصطلاح بونى (قرطاجى) ، يعنى « الحاكم الأعلى » . انظر الكلمة العبرية (شوفيت) . والبونية إحدى اللهجات الفينيقية . والفينيقية والعبرية من أصل واحد.

(١٣) الرقمان ٦٠ ، و ٣٠,٠٠٠ لا يتطابقان . لأن هذه السفن ذوات الخمسين مجدافاً ، لا تستطيع واحدتها أن تحمل ٥٠٠ راكب .

(١٤) واصلت الأمم الأوربية هذه الطريقة نفسها فى أول فترة الاستعمار . وكانت البرتغال السابقة إلى ذلك . ولم تكن الإمبراطورية البرتغالية فى آسيا ، فى القرن السادس عشر ، سوى مجموعة من المحطات التجارية المنثورة على سواحل الهند ، وآسيا القصوى ، والصين ، والجزر .

(١٥) رتشارد هلكويت (١٥٥٢ — ١٦١٦) ، مؤرخ إنجليزى للملاحة . انظر :
Isis 38, 130 (1947-48)

(١٦) Pliny, Natural history VII, 197.

(١٧) طرطسوس ، مستعمرة فينيقية عند فم الوادى الكبير فى الأندلس . ولعلها طرشيش (حزقيا ٢٧ : ١٢ ، أرميا ١٠ : ٩) ، وقد ظلت مستعمرة مزدهرة ، إلى أن خربت سنة ٥٠٠ ، وحلت محلها مستعمرة فينيقية أخرى ، فى نفس المنطقة ، وهى قادس .

(١٨) التفاصيل عن اتجار الفينيقيين بالقصدير غامضة جداً . وذلك يعود فى الأكثر إلى أن الفينيقيين كانوا يخفون سر تجارتهم . وموقع جزر القصدير (جزر كسيتريدس Cassiterides nesoi) موضع اختلاف كبير . فهل هى بعض الجزر الإنجليزية ، أم أنها جزر أخرى فى المحيط الأطلسى ؟

(١٩) R.F. Avienus (IV-2), in his poem "Ora maritima", Line 120

(٢٠) يقع بحر السرجاسو بين خطى عرض ٢٠ و ٣٥ شمالا ، وخطى طول ٤٠و٧٠ غرباً . وهو محاط بتيارات تسير فى اتجاه عقرب الساعة . وجزر البرمودا تقع بالقرب من طرفه الغربى .

وجزر الأزور تقع على مسافة من الزاوية الشمالية الشرقية .

(٢١) *Fortunatorum insulae* (*ai ton macron nesoi*) ، أو الجزر المباركة وهى جزر الكناري أو جزر المديرا .

(٢٢) الذى يدعوني إلى التردد فى الإنكار ، هو إشارة مشابهة وردت فى كتاب (Mirabilia) الذى ينسب إلى أرسطو (١٣٦ ، نهاية ٨٤٤ ا) ومهما يكن الأمر ، فإن أرسطو وأفينوس ، يشيران إلى مكان من البحر ماؤه وشل . ولا يمكن أن يكون ذلك بحر السرجاسو .

(٢٣) قد يكون من المفيد أن يحتوى هذا القسم الجغرافى على دراسة للآراء الأولى التى تدور حول فيضانات النيل . ولكننا تناولنا هذا الموضوع ، أثناء حديثنا عن أناكساجوراس .

(٢٤) هؤلاء العشرة آلاف كانوا من المرتزقة اليونان ، وقد استأجرهم قورش الصغير ، الذى كان ، أحد الولاة الفرس ، وقد تآمر على أخيه الملك أرتاكسركسيس منيمون (حكم من سنة ٤٠٥ – ٣٥٩) . وأقلع من ساردیس ، فى ربيع سنة ٤٠١ ، وقد تغلب عليه أرتاكسركسيس وقتله فى سهل كوناكسا . شمالى بابل ، فيما بين النهرين . أما المرتزقة اليونان ، فقد حصلوا على عهد أمان من أرتاكسركسيس ، وساروا على نهر دجلة ، بمحاذاة ضفته اليسارية ، حتى وصلوا إلى رافده ، نهر الزاب الكبير ، وهناك قبض على قائدهم وضباطهم ، بخديعة ، فوجدوا أنفسهم دون رئيس أو مرشد . واختير كسينوفون قائداً لهم ، فسار بأكثرهم حتى بلغ بهم أرض الوطن بأمان . أما عنوان الكتاب (Anabasis) ، فإنه مضلل إلى حد ما . لأن الرحلة اشتملت على انحدار وصعود ، وانحدارهم الأخير نحو البحر الأسود ، كان طويلا ، وقد درس الـ Anabasis بعض الرحالين الذين حاولوا اقتفاء آثار كسينوفون ، ومنهم : (H.F. Tozer) الإنجليزى (سنة ١٨٨١) ، و (Eduard von Hoffmeister) الألمانى (سنة ١٩١١) ، و (Authur Boucher) الإفرنسى (سنة ١٩١٣) . وهذه التواريخ ، هى تواريخ نشر كتبهم . (راجع المقدمة ج ١ ص ١٢٣)

(٢٥) اعترض البعض ، بأن وصف كسينوفون لم يكن دقيقاً ، بحيث يمكن للإنسان ، أن يرسم خط سيره على الخريطة . وهذا القول فيه كثير من الإجحاف . لأن التجوال فى منطقة كجبال أرمينيا ، لا يمكن أن يوصف بدقة بالغة ، وذلك لانعدام علامات الحدود (الإنسانية) الدقيقة . أضف إلى ذلك ، أن كسينوفون وصف الإقليم الذى عبره مع جيشه وصفاً كافياً ، ولم يحاول وصف الشعاب . والإنسان لا يستطيع أن يرسم خط سيره على خريطة كبيرة ، ولكنه يستطيع أن يفعل ذلك على خريطة صغيرة . وقد حدث ذلك مراراً .

(٢٦) إن اسم هاليكارناسوس ، مألوف عند أكثر القراء ، وذلك بسبب النصب الذى فيه . وهذا النصب هو عبارة عن بناء ضخم ، أقامته الملكة أرتميزيا الثانية ، لإحياء ذكرى أخيها وزوجها موسولوس ، والى كاريا ، من سنة ٣٧٧ – ٣٥٣ ق . م ، وقد خرب الإسكندر المدينة سنة ٣٣٤ . أما بقايا هذا النصب ، التى اكتشفها السير شارلس نيوتن سنة ١٨٥٧ ، فهى محفوظة فى المتحف البريطانى وعلى الرغم من أن هذا النصب قد تهدم ، فإن أرتميزيا نجحت فى تحقيق غايتها ، وأصبحت كلمة

(موسوليوم) ، تعنى القبر الفخم . وكلما استعملنا هذه الكلمة ، انحنينا إجلالا أمام موسولوس ، وأمامها .

وقد كانت هاليكارناسوس مسقط رأس عالمين من علماء التاريخ ، هما هيرودوت وديونيسيوس (١ – I ق. م) .

(٢٧) لم يذكر فيليه (Philae) ، التى تدعى درة مصر ، لأن أقدم آثارها يعود إلى سنة ٣٧٠ ق . م) .

(٢٨) *De legibus* I end of 1: "Quamquam et apud Herodotum, Patrem historia, et apud Theopompum sunt innumerabiles fabulae".

أما تيوبومبوس الذى ينتمى إلى خيوس (٢ – IV ق . م) ، فقد كان يدعى فى وقت من الأوقات رائد التاريخ النفسى ، وهو فى ذلك سلف المؤرخ اليونانى تاكيتوس (٢ – I)

(٢٩) من الممتع حقاً أن نلاحظ ، تأخر ظهور الرائعة النثرية الأولى ، عن الروائع الشعرية . أما تاريخ الإلياذة ، فإنه غير مؤكد . ولكن أجزاء منها وجدت قبل مصنف هيرودوت ، بثلاثة أو أربعة قرون .

(٣٠) سستوس هى خير موانىء الدردنيل ، وهى فى الطرف الشمالى (الأوربى) . ومن هناك استطاع كسركسيس أن ينقل جيشه من آسيا إلى أوربا ، على جسر من الزوارق . وكانت أول مدينة حررها الأسطول الأثينى من قبضة الفرس ، وكان ذلك سنة ٤٧٩ ، وقد بدأ ثوكيديديس وصفه التاريخى (*ta meta ta Medica*) ، فى ذلك الحين .

(٣١) إشاراتى إلى كتاب هيرودوت ، تكون عادة إلى الكتاب والفصل ، مثلا الكتاب السابع الفصل ١٠٣ ، وهذا ييسر للقارئ الاعتماد على أية طبعة أو ترجمة .

(٣٢) كلمة لوجوس logos التى تعنى قصة أو تاريخاً ، تتفق وكلمة logographos ، التى استعملت للدلالة على كتاب الحوليات التاريخية الأول .

(٣٣) الكلمة اليونانية barbaros ، لاتشير إلى هذا المعنى الذميم ، الذى اشتققناه نحن منها . وكلمة Barbaroi ، تقابل كلمة (Foreigner) الإنجليزية ، و (goyim) العبرية و (Gentiles) اللاتينية. وعندما تستعمل هذه الألفاظ للدلالة على شعب جاهل ضيق الأفق ، فإنها حينئذ تكون ذات معنى خاص . أما هيرودوت ، فقد استعملها ، كما يستعمل الأمريكى المهذب كلمة « أجنبى » ، دون أن يعنى بها أى ازدراء .

(٣٤) إن الاسمين المعروفين لأبوى هيرودوت ، كما ذكرهما سويداس (٢ – X) ، غريبان للغاية : ليكسيس ودريو . وهما أول اسمين من هذا النوع أمر بهما . وقد يكونان اسمين شرقيين ، صبغا بصبغة يونانية . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن هيرودوت نفسه يكون أجنبياً ، على الأقل من ناحية واحدة . ولنتذكر أن اليونانى المحض ، كان قلة فى آسيا .

(٣٥) هيرودوت الكتاب السابع الفصل ٩٩ ، والكتاب الثامن الفصل ١٠٣ .

(٣٦) هنالك تعليق طريف على تسامح هيرودوت وكرم نفسه كتبه : Theodore Johannes Haarhoff, *The Stranger at the gate* طبع فى (Oxford: Blackwell, 1938, 1948) ص ٢٠ ، ٢٢ .

راجع (*Isis* 41, 75 (1950) والمؤلف يدرك جيداً معنى التعصب العنصرى ، لأنه أستاذ الكلاسيكيات فى جامعة وتووترزراند ، فى يوهانسبرج .

(٣٧) القارات الثلاث ، أو بالأحرى الأقسام الثلاثة — أوربا وآسيا وليبيا — عرفت فى أوائل القرن الخامس أو قبل ذلك . وقد اعترض هيرودوتس على ذلك (الكتاب الثانى الفصل ١٧) قائلا : « يجب علينا أن نضيف قسماً رابعاً وهو مصر . ذلك أن النيل يفصل آسيا عن ليبيا . وبهذا تصبح مصر نصف آسيوية ، ونصف ليبية . وآراؤه التى تتعلق بالمساحات النسبية لهذه الأقسام ، طبعاً خاطئة .

(٣٨) W.W. How and J. Wells:"*commentary on Herodotos*" (Oxford 1912) vol. 1 p.17 وفيه أسباب وجيهة تقنعنا بأن هيرودوت كان تاجراً .

(٣٩) هيرودوت الكتاب السابع ، الفصل ٦١ — ٩٩ .

(٤٠) المرجع السابق ، الكتاب الثالث ، الفصل ٨ .

(٤١) « تقلبات الحظوظ » كانت موضوعاً شائعاً فى الأدب الإغريقى . واستعارة « عجلة الحظ » ، وردت فى إحدى مخطوطات سوفوكليس (رقم ٨٨١ ، من طبعة A.C. Pearson ج ٣ ص ٧٠) . وفكرة العناية الإلهية تتضح لنا جيداً من الاسم الذى كان يطلق على أثينا . التى كانت تعبد فى دلفى ، وهو : *Pronoia Athena*

(٤٢) John Dewar Denniston, *Oxford classical dictionary* (Oxford: clarendon Press 1949) p. 423.

(٤٣) هيرودوت الكتاب الثانى الفصل ٢ .

(٤٤) فريجيا كانت الجزء الغربى من الهضبة الوسطى فى آسيا الصغرى . وخير من يمثل عظمتها ، الملك ميداس الأسطورى ، والملك ميداس الثانى ، الذى حكم من سنة ٧٣٨ — ٦٩٦ ق.م.

(٤٥) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، الفصل ٣ .

(٤٦) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، الفصل ١٢٣ .

(٤٧) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، الفصل ٨٢ ، ٨٣ .

(٤٨) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، الفصل ٤ .

(٤٩) هيرودوت ، الكتاب الأول ، الفصل ٣٢ .

(٥٠) هيرودوت ، الكتاب السابع ، الفصل ٣٧ .

(٥١) هنالك تحليل للمادة الكيماوية التى جاءت فى كتاب هيرودوت ، كتبه E.O. Von Lippmann فى مقالة : "Technologisches und Kulturgeschichtliches aus Herodot" *Chem. Zeit*, Nos 1, 7, 819 (1924)

وهو يقسمها إلى : العناصر ، والمواد المعدنية ، والمواد العضوية .

(٥٢) هيرودوت الكتاب الأول الفصل ١٩٣ .

(٥٣) راجع الفصل السادس ، حاشية رقم ٦ .

(٥٤) أول من شرح تلقيح النبات شرحاً علمياً هورودلف يعقوب كيراريوس . (Rudolf Jacob Camerarius) سنة ١٦٩٤ . أول تفسير واف لتلقيح التين ، كتبه جورجيو جالسيو (Giorgio Gallesio) راجع : Ira, J. Conduit, *The fig* (Waltham: Chronica Botanica, 1947) (*Isis* 40, 290 '1949').

(٥٥) هيرودوت الكتاب الرابع الفصل ٥٣ .

(٥٦) *Ceta te megala anacantha ta anatacaius caleusi*.. D'Arcy W. Thompson, Greek fishes (London: Oxford University Press 1947), p. 16 (*Isis* 38, 254 (1947-48)). For salted fish see Koehler: "*Tarichos*," *Mém. Acad. St. Pétersbourg* (1832), pp. 347-488. Article "Salgama (*halmaia*) in Daremberg and Saglio, *Dictionnaire des antiquités grecques et romaines* (Paris 1877-1919) vol. 4, p. 1014.

إن تاريخ كافيار لم يكتب بعد مع أن كوهلر خصص له فصلا قصيراً . وفى رأيه أن المؤلف القديم الوحيد الذى أشار إليه . كان دفلوس السيفنوسى Diphilos of Siphonos فى القرنين الرابع والثالث كما ذكره اثيناوس النقراطى .

(٥٧) هيرودوت الكتاب الثانى ، الفصل : ٥ والكتاب الثانى الفصل : ١٢ .

(٥٨) هيرودوت الكتاب الثانى ، الفصل ١٢ .

(٥٩) هيرودوت الكتاب السابع الفصل ١٢٩ .

(٦٠) هيرودوت الكتاب الرابع الفصل ٣٦ ، كما هو مترجم فى كتاب Greek Geography تأليف Eric Herbert Warmington ص ٢٢٩ . وهذه المجموعة تضم مختارات طويلة من هيرودوت ، توضح آراءه عن الحدود العامة ، للأقسام المأهولة من الأرض . وعن خصائص كل قسم من هذه الأقسام .

(٦١) هيرودوت الكتاب الثالث ، الفصل : ١١٥ . وتحقيق موضع نهر الأريدانوس ، وموضع جزر القصدير ، مثل جيد على تخبط الجغرافيا القديمة . وقد خلط بين نهر الأريدانوس والبو ، والرون والراين . كما اختلطت جزائر القصدير (جزائر الكسيتريدس) ، بجزر صقلية ، وكورنوال ، وبالجزر التى تقع على ساحل بريتانى ، أو على ساحل إسبانيا .

(٦٢) تقع فى المقدمة على خلاصة للآراء التى قيلت بشأن الأنهار الإفريقية الكبيرة ، كالنيل والنيجر والسينغال والكونغو أيضاً (المقدمة ج ٣ ص ١١٥٨ — ١١٦٠) . وقد ذكرت المراجع هناك .

(٦٣) إن الإنسان ، لديه وسائل أخرى . فهو يستطيع أن يتتبع ، فى طائرة ، مجرى نهر من الأنهار كالنيل مثلا من منبعه إلى مصبه ، فيراه على حقيقته بسرعة .

(٦٤) هيرودوت الكتاب الخامس ، الفصل : ٥٢ — ٥٣ .

(٦٥) هيرودوت هو الذى قال : ١٥٠ ستادية لليوم الواحد (الكتاب الخامس ، الفصل : ٥٣) وطول الستادية ، يختلف ، بين زمان وزمان ، ومن موضع إلى موضع آخر .

وإذا اعتبرنا أن طول الليل ٧,٥ أو ١٠ ستاديا ، فإن ١٥٠ ستاديا فى اليوم تساوى ٢٠ ، أو ١٥

ميلا فى اليوم ، على التوالى . ولمعرفة طول الستاديا راجع :

Aubrey Diller, "The ancient measurements of the earth," *Isis* 40, 6-10 (1949)

(٦٦) لبحث أمر الطريق انظر H.F. Tozer, *History of ancient geography* pp. 90-91, XIV. ولأمر المصالح البريدية القديمة الشرقية انظر : Introduction vol. 3, p. 1786.

(٦٧) هيرودوت الكتاب الثالث ، الفصول : ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، والكتاب الرابع ، الفصل ٤٤ .

(٦٨) المرجع السابق الكتاب الثالث ، الفصل ١٠٦ ، والكتاب السابع ، الفصل ٦٥ .

(٦٩) تبعاً للاصطلاحات المستعملة فى مجلة *Isis* ، أفضل أن استعمل كلمة ethnology (علم خصائص الشعوب)، للدلالة على دراسة أخلاق الجنس البشرى وعاداته . أما كلمة authropology (علم الأجناس البشرية) فإنى أشير بها إلى دراسة الجنس البشرى من الناحيتين التشريحية ، والجنسية .

(٧٠) كالزواج بالسبى والشراء والزواج الاشتراكى ، وقانون السيد ، والزواج بالأجنبيات (من غير العشيرة) ، وتعدد الأزواج ، والبغاء الدينى ، وعدم العفة قبل الزواج ، إلخ . . .

(٧١) اللغة السكيتية ، كانت فى الغالب فرعاً من اللغة الإيرانية ، الفرع الشمالى الغربى منها . راجع : A Meillet and Marcel Cohen, *Les langues du Monde* (Paris 1924) pp. 36, 42, 176, 185 (Isis 10, 298 (1928).

(٧٢) هيرودوت ، الكتاب الرابع ، الفصل : ٧٤ ، ٧٥ . وشجرة القنب ، تحدث اليوم اضطراباً شديداً فى بلادنا ، وهى تحمل الاسم المكسيكى : ماريجوانا : Marijuana

(٧٣) انظر : Ferdinand keller of Zurich (1800-1881); *Isis* 26. 308-311 (1934) مع الرسم وأقدم تاريخ لسكنى البحيرات يعود إلى العصر الحجرى . وقد ظلت منتشرة، فى بعض عصور ما قبل التاريخ ، وفى العصور التاريخية أيضاً .

(٧٤) راجع هيرودوت الكتاب الخامس الفصل : ١٦ . أبقراط : الرياح ، والمياه والأمكنة ، ١٥ . وكلا النصين موجود باللغة الإنجليزية ، فى ملاحظتى عن « أول عرض لبقايا منازل الركائز الخشبية ، فى عصور ما قبل التاريخ ، كما تتضح فى رسم كونراد وتز سنة ١٤٤٤ » ، راجع :

Isis 26, 449-451 (1936), 1 pl.; 32, 116 (1947-49). W.R. Halliday, "The first description of a lake-village," *Discovery* 1, 235-238 (1920) (*Isis* 4, 127 (1921-22) . Robert Munro, Encyclopedia of Releqion and Ethics, vol. 7 (1915), PP. 773-784.

(٧٥) هيرودوت الثانى ، الفصل : ٣٢ .

(٧٦) Paul Monceaux, "La légende des pygmées et nains de l'Afrique équatoriale." *Revue historique* 47, 1-64 (1891); *Introduction*, vol. 3, pp. 1227, 1860.

(٧٧) هيرودوت الكتاب الأول ، الفصل : ٧٤ .

(٧٨) P.J. Hamilton-Grierson, "Artificial brotherhood". *Encyclopedia of Relegion and Ethics*, vol. 2 (1910), pp. 857-871.

(٧٩) هيرودوت الكتاب الثانى ، الفصل : ١١٣ .

(٨٠) المرجع السابق ، الفصل ٦٤ — ٧٥ .

(٨١) لقد جلا هذه القضية John Ferguson McLennan (1827-1881), James George Frazer (1854-1941), Totemism (Edinburgh, 1887), Totemism and exogamy (4 vols. London, 1910).

لاحظ أن السير جيمس توفى فى سنة ١٩٤١ وانظر كم هى قريبة من زمننا

(٨٢) لمقدمات هذه المواضوعات انظر *Encyclopedia* of *Relegion and Ethics*. Goblet d'Alviella on Animism, vol. 1 (1908) pp. 535-537; R.R. Marett on tabu, vol. 12 (1922), pp. 181-185; E. Sidney Hartland on totemism vol. 12 (1922) pp. 393-407.

وإن هذه الموضوعات التى كان يختلف فى أمرها من نصف قرن أصبحت الآن أمراً مقبولا فى كل كتاب مدرسى فى علم خصائص الشعوب .

(٨٣) Arnold van Gennep, *Relegions, moeurs et légendes* (Paris 1909), vol. 2 p. 174.

(٨٤) نيكياس (١٣ — ٤٧٠) ، كان ارستقراطياً أثينياً ، وقائداً عاماً . وقد سعى للصلح ، واستطاع فى سنة ٤٢١ ، أن يحصل على معاهدة السلام تلك ، التى سميت باسمه . ولم يكن راضياً عن حملة صقلية ، إلا أنها قررت رغماً عنه ، وعين قائداً لها . وقد أعدمه السيراكوزيون سنة ٤١٣ .

(٨٥) نحن لا نعلم هل كانت له أملاك هناك أم لا . ولكنه منح امتيازاً لاستغلال بعض المناجم . وكانت هذه المناجم تقع فى سكبت هايل ، على ساحل تراقيا ، المقابل لجزيرة تاسوس . وتقع على بعد قليل منها ، إلى جهة الغرب ، اسكى قولة الحديثة ، أو قولة القديمة . ولنذكر أن قولة هذه ، كانت أول بقعة أوربية نزل فيها القديس بولس . ولد فيها محمد على سنة ١٧٦٩ ، وهو مؤسس الأسرة العلوية فى مصر . راجع : *Isis* 31, 97 (1939-40)

(٨٦) توكيديديس ، ٢٦/٥ .

(٨٧) المرجع السابق .

(٨٨) المرجع السابق ٢٢/١ .

(٨٩) المرجع السابق ٢٣/٥ .

(٩٠) المرجع السابق ٤٧/٥ .

(٩١) المرجع السابق ٦٥/٢ .

(٩٢) المرجع السابق ٣٥/٢ — ٤٦ .

(٩٣) المرجع السابق ٤٠/٢ .

(٩٤) المرجع السابق ٤٦/٢ .

(٩٥) المرجع السابق ٣٦/٣ .

(٩٦) المرجع السابق ٣٧/٣ .

(٩٧) المرجع السابق ٨/١ .

(٩٨) المرجع السابق ١/٢٢ .

(٩٩) The Peri Stephanu (حول التاج) ، هو أشهر خطاب لديموستين ، أعظم خطباء اليونان قاطبة (عاش من سنة ٣٨٥ – ٣٢٢) . وقد ألقاه سنة ٣٣٠ ، تبريراً لخصومته مع فيليب الثانى المقدونى ، التى استمرت أربعة عشر عاماً . وقد انتصر فيليب فى معركة شيرونيا (سنة ٣٣٨) ، التى كانت نهاية استقلال اليونان ، وتوفى سنة ٣٣٦ . وواصل ديموستين مقاومته للإسكندر ، ولكنه خسر المعركة .

(١٠٠) ثوكيديديس ١/٢٢ .

(١٠١) أصبح الآن من الممكن تسجيل الخطاب ، والاحتفاظ به كما لفظ للأجيال ، كأنه شيء حي.

(١٠٢) ثوكيديديس ٢/٤١ .

(١٠٣) ثوكيديديس ٢/٤٧ – ٤٩ .

(١٠٤) المقدمة ج ٣ ص ١٦٥٦ . Introduction etc.

(١٠٥) Isis 29. 406 (1938).

(١٠٦) Isis 37, 124 (1947)

(١٠٧) J.F.D. Shrewsbury "The plague of Athens", *Bull. History of Medicine* 4, 1-25 (1950); *Commentary* by William MacArthur, *ibid.* 51, 214-215 (1950)

(١٠٨) J.H. Finley, Jr., *Thucydides* (Cambridge: Harvard University Press, 1942)

(١٠٩) انظر لبحث الـ Introduction vol. 3, pp. 1650, 1668, 1860, 1868; George Barger, *Ergot and ergotism* (London: Gurney and Jackson, 1931).

(١١٠) لوكريتيوس : « طبيعة الأشياء » . De rerum natura ج ٦–١١٣٨–١٢٨٦ .

(١١١) ثوكيديديس ٢/٩٤ .

(١١٢) هنا إشارات مشابهة فى هيرودوت ٣/٩ ، ٦/١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ . وعند كسينوفون وغيره من المؤرخين . راجع : Tozer. *History of ancient geography*, pp. 328-334. Wolfgang Riepl, *Das Nachrichtenwesen des Altertums* (492 pp; Leipzig, 1913). وهو يعالج بالأخص العصور الرومانية

(١١٣) ثوكيديديس ٢/٢٨ .

(١١٤) المرجع السابق ٤/٥٢ .

(١١٥) المرجع السابق ٧/٥٠ .

(١١٦) كنيدوس شبه جزيرة ضيقة فى الزاوية الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى وهى قريبة من هاليكارناسوس وكوس .

(١١٧) راجع بشأن معركة كوناكسا سنة ٤٠١ ، تعليق رقم ٢٤ . وقد شهد كسينوفون وكتيسياس المعركة ، وكان كل منهما فى طرف .

(١١٨) كان يحكم قبرص الفرس والفينيقيون . وفى سنة ١١٤ ، حدث انتعاش هلنى ، بقيادة

ايفاجوراس (٤٣٥ – ٣٧٤) ، الذى ينتمى إلى سلاميس (كانت سلاميس المدينة اليونانية الرئيسية فى قبرص . وكانت على الشاطىء الشرقى ، على مرأى النظر من سوريا) . وقد انضم إلى ايفاجوراس كثير من اللاجئين اليونانيين ، وكان أشهرهم أمير البحر كونون الأثينى (٤٤٤ – ٣٩٢) الذى أعاد تنظيم الأسطول اليونانى ، ودمر الأسطول الإسبرطى فى معركة كنيدوس سنة ٣٩٤ .

(١١٩) R. Henry, *Ctesias, la Perse, l'Inde, Les sommaires de Photius* (Brussels: Office des Publicité, 1947) (*Isis* 39, 242 '1948')

(١٢٠) إن أحسن طبعة لـ Persica وضعها جون جلمور John Gilmore London 1888 وهى باليونانية فقط ولكنها محشاة ومفهرسة ، أما بصدد Indica فانظر الترجمة لـ J. W. McCrindle (Calcutta, 1882) ولا نص يونانى معها ولكنها محشاة ومفهرسة .

(١٢١) ديودورس الصقلى ٢/١٣ . بهستون هى بيستون الحديثة (راجع دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول (١٩١٢) ، ص ٧٣٤) ، وهى تقع فى غربى ايران ، قرب كرمانشاه . والاسم الذى استعمله كتيسياس هو (Bagistanon oros) وهو مشتق من كلمة (Bagastana) ، بالفارسية القديمة ، وتعنى مكان الإله (وهو مترّاس) . وحل رموز الخط المسمارى ، الذى قام به سير هنرى رولنسون ، (١٨٤٧) . كان بداية علم الأشوريات ، راجع :

(١٢٢) Leonard William King and Reginald Campbell Thompson, "*The Sculptures and Inscription of Darius the Great*" (London, British Museum, 1907)

(١٢٣) Diodoros of Sicily, ii, 12; translation by Charles Henry Oldfather, in Lock Classical Library.

(١٢٤) هيرودوت ١/١٧٩ .

(١٢٥) هى (هيت الحديثة) ، وكانت على مسير ثمانية أيام من بابل ، على مقربة من الفرات ، إلى جهة الغرب . وكانت محجراً للقار الذى استعمل فى بناء أسوار بابل .

(١٢٦) تلفظ كلمة elleboros فى اللهجة الأيونية بنفس هادئ ، وفى اللهجة الأتيكية بنفس غليظ . وهذا يفسر كتابتها فى الإنجليزية على صورتين ، هما ellebore و Hellebore والأولى منهما مهجورة الآن . وكانت العروق المجففة وجذور أنواع الهليور (الخربق الأسود) المختلفة تستعمل كثيراً عند اليونان والرومان كعقاقير . وهى تحتوى على أنواع مختلفة من شبه القلويات ، التى تعمل كمخدرات ومسكنات . وتستعمل من الخارج لقتل الحشرات . وهنالك إشارات كثيرة إلى الخربق الأسود فى مجموعة ابقراط . وهى أقل بكثير مما عند جالينوس راجع : Littré, *Oeuvres complétes d'Hippocrate*, vol. 10, pp. 628-630; See: K.G. Kuhn (20 vols.; Leipzig, 1821-1833) vol. 20, p. 296. وكان الأطباء الأبقراطيون يستعملونه لأغراض كثيرة مختلفة .

(١٢٧) Oribasios of Pergamon (IV-2), physician to Julian the Apostate. والنص موجود فى Iatricai Synagogai, VIII, 8, وانظر أيضاً الطبعة الممتازة التى حررها Bussemaker and Daremberg (6 vols.; Paris 1851-1876), vol. 2 (1854), p 182.

(١٢٨) كما جاء فى سترابون ١/١٥ ، ٥ ، ٢ ، ٥ .